اقرأ

امينة السعيد

الجامحة

دار المعارف بمصر

الجامِحَة

أمينة السعيد

الجامِحة

اقرأ ٩٢
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٢ — يوليو سنة ١٩٥٠

١

لم تعرف أميرة فى يوم من الأيام مثل ذلك الشقاء الذى استبد بها ، وهى تقف فى شرفتها الحجرية الواسعة تتأمل الأفق المحمر بأشعة الشمس الغاربة ، فلا ترى فى الجمال الماثل أمامها ، إلا مقدمة لشىء تخافه وتكرهه .

ولم يكن يعوز أميرة مزاج شاعرىّ دقيق يتذوق الجمال ، ويطرب لمعانيه ، فهى فنانة بطبعها : عرفها الناس رسامة بارعة تخرج لوحات زيتية متقنة قد لا تبلغ مستوى روائع الفن ، ولكنها تنطق بالحياة الحقة ، وتُبرز ما فيها من فتن وجلال ، وهو ما لم يسمُ إليه كثيرون من أبناء وطنها الموهوبين .

ولم يكن يعوز أميرة أيضاً قلب مرهف ينبض لترانيم الأفق الدامى بأضواء شمسه الآفلة ، فقد حبتها الأقدار بإحساسات جُدلت من أوتار قيثارة ناعمة تمر بها أصابع الأيام ، فتردّد أنغاماً كألوان الحياة بهيجة أو باكية . وقد تكون المباهج لنفسها ، فلا تبخل على تلك النفس بالسرور والطرب . وقد يكون البكاء لغيرها ، فلا تضنّ على هؤلاء

بالدمع والشجن ، لأنها كانت فى مباهجها وأشجانها قطعة من لب الحياة شاءت الأقدار أن تجعلها امرأة ، وأن تؤثرها من العواطف بنصيب عشر على الأقل .

ولكن أميرة كانت ترقب جمال الغروب واجفة ، فعما قريب تزول حمرة الأفق ، ثم يأتى بعدها الغسق ، فيصطبغ الكون من حولها بلون رمادى مقبض له قدرة عجيبة على التغلغل فى أغوار القلوب ، لينفث فيها روحاً متشائمة لا تلبث أن تزول ، وقد خلفت وراءها بذور اليأس والشقاء . . . كانت تكره الغسق ، وترى فى عتمته القاسية ما يصوّر لها يداً حديدية باطشة تطبق على صدرها غير حانية أو مشفقة ، لتعتصر منه قطرات السعادة وذراتها .

ولم يتغير إحساسها نحو الغسق بتغير أطوار حياتها ، فكما كانت فى طفولتها تكرهه وتخشاه ، ظلت كذلك فى شبابها تكرهه وتخشاه ، وتجد فى عتمته الحائرة بين النور والظلام نذيراً بحيرة قلبها بين السعادة والشقاء . وظل هذا الشعور يطاردها كل مساء ، فيتملكها إيمان عجيب بأن الغسق محنة حياتها وعقدة نفسها ، فإذا انقضى وحل الظلام ، زال تتطيرها ، وعاودها الهدوء والسلام .

وكان الغسق إذا فاجأ أميرة وهى بعيدة عن صحبها ،

لاذت بلوحاتها الحبيبة تتأملها معجبة بها ، وتنقدها مشفقة ، فتنسى فى غمرة متعتها كل شىء ما عدا الفن الذى وُهبته . أما اليوم فقد عصتها لوحاتها الخائنة ، وأبت أن تستسلم لعينها الفاحصة ، متعاونة مع الدنيا فى تركها تجرع كأس شقائها وحدها . . . وكانت الكأس أكبر من أن تحتمل مرارتها امرأة مرهفة الحس والشعور ، فتطلعت إلى الأفق تطلب العون ، فلم تجبها إلا طلائع الغسق الرمادى المعتم .

وضاقت بذلك الثقل الذى يجثم على صدرها ، وتخاذلت قدماها عن حملها ، فارتمت على مقعد قريب ، وقد شخصت عيناها إلى الأفق لا تنصرفان عنه كأنه أفعى تسحرها نظراتها . . . وعلى صفحته الدامية بدأت قصة حياتها تتوالى فى صور سريعة متلاحقة بعضها لامع زاهر ، وبعضها الآخر قاتم كالح ، وكلها تتصل بخيط رفيع من الألم . . . والألم ألوان ، فمنه الحلو الذى تبعثه السعادة فى النفوس ، ومنه المر الذى تنزفه جراح القلوب ، ولكنه فى حلاوته أو مرارته ألم على كل حال يعتصر الروح ويستنفد الشباب . وقد ذاقت أميرة من اللونين رشفات ، فنهكها السعد كما نهكها التعس ، وخرجت منهما خائرة القوى متعبة .

وعجبت كيف التوت أمورها واضطربت هكذا ، وهى

التي وضعت لشبابها خطة مستقيمة واضحة ظنت بجهلها بشئون الدنيا أنها بمأمن من كل شرّ ، ثم جاءت الأيام ، فغيرت قليلا من هنا ، وقليلا من هناك ، ودأبت على ذلك حتى لم يتبق من معالم تلك الخطة إلا ما يذكرها بسفين جميل هجره أصحابه وركابه بعد ما تقاذفته الأمواج ، وألقت به إلى شاطىء مقفر سحيق .

وجعلت تفكر في الخطة القديمة باحثة عن موطن الضعف فيها ، فلم تهتد إلا إلى غرور لم تكن مسئولة عنه ، فقد غرسته الأقدار في قلبها منذ نشأتها ، ورعى الغرس أبوها حتى نما وترعرع وتمكنت جذوره من خلقها . وكثيراً ما كان ذلك الغرور يعذّبها ، فتجمع شتات شجاعتها لتقهره ، وتنجح فعلا ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنها لم تكن تغلبه إلا بعد صراع عنيف يطول حتى تذهب الفرصة المواتية . كانت حياتها فرصاً ضاعت ، لأنها تأخرت في اقتطاف زهرتها في حينها ، فمن تلوم على آلامها ، ومن تحمل وزر غرورها ؟ ؟

وكان يحلو لها أحياناً أن تنحى على ذكرى أبيها بالعتاب والملامة . فمنه رضعت لبان الكبرياء ، وعنه أخذت دروسها فيها ، ثم لا تلبث أن يلين قلبها ، فتندم على جحود يزينه

لها سعيها إلى الهرب بنفسها من شقاء نفسها وآلامها . حقيقة أنه غذّى كبرياءها ، ولكن بمقصد طيب يرمى به إلى تقويتها وإعدادها لخوض معارك الحياة الصاخبة . . . وهنا كان خطؤه ، فأميرة لم تكن فتاة عادية ، بل مخلوقاً شديد الحساسية بلتها الأقدار بعواطف فيّاضة جارفة ظلت تتطاحن فى قلبها مهددة منذرة ، فكيف غفل أبوها عن هذه الحقيقة ، وكيف سعى إلى تقويتها بكل ما أوتيه من جهد وتأثير ؟ ؟ أتتفق العاطفة والقوة ؟ ؟ كلا ؛ فكلتاهما مع الأخرى على طرفى نقيض ، وإذا قُدر واجتمعتا كان الدمار النفسىّ الذى تعانيه .

كان يجب أن تحيا بعاطفتها فقط ، أو تحيا بقوتها فقط ؛ أمّا أن تخلط بين الحياتين ، فمأساة مات أبوها قبل أن يشهد أحداثها ! !

وعادت بها الذكرى إلى ماض بعيد . . . إلى عشرين عاماً ونيّف ، يوم ألبسوها ثياباً جميلة بيضاء وقفت تختال بها أمام المرآة ضاحكة راقصة ، فأنبتها مربيتها فى رفق ، ونصحت لها بالتعقل استعداداً للمناسبة الهامة . . . وكانت تعرف أن هذه الثياب قد أعدت لعيد ميلادها ؛ أما العيد نفسه فلم تكن تعرف عنه أكثر من أنه حدث لطيف يمر

بحياة كل طفلة مثلها ، فيتيح لها فرصة الاجتماع بصديقاتها وأهلها ، وتقبل مختلف الهدايا الجميلة التى يحملونها إليها .

ومر الاحتفال فى ذلك اليوم دون مثيرات تشبع طفولتها الغريرة ، لولا حديث عابر سمعته ، فبقيت ذكراه ماثلة أمامها طوال هذه السنوات ؛ فعندما انتهت الوليمة ، وحان الوقت لتعود أميرة إلى حجرتها ، ربّت صديق طيب على رأسها بيده ، وقال لأبيها : إنه كان يتمنى لو عاشت أمها ، لتشاركهم فى تلك المناسبة السعيدة . . . وإذ ذاك فطنت إلى أنه كان ينقص حياتها أم ، فأين هى ؟ ولماذا لم يحدثها أحد بأمرها ومصيرها ؟ ؟ وظل هذا السؤال يتردد فى ذهنها الفينة بعد الفينة ، فلما أعياها الجواب الشافى انتحت بأبيها جانباً وقالت له :

– أليس لى أم كبقية الأطفال ؟

قال لها :

– نعم ، كان لك أم يا بنيتى .

– وأين هى ؟

– ماتت عند مولدك ، وصعدت روحها إلى السماء .

– ألا يمكن أن نستردها من الموت ؟

– لا ، فالموتى لا يعودون .

ــ ولماذا ؟

وتملكته حيرة شديدة . فلو أراد أن يصدق إجابتها ، ما فهمت من فلسفة الموت والحياة شيئاً ، قال :

ــ إن الموت نهاية الجسد .

ــ أتقصد أن الموت يفسد الجسد ؟

ــ نعم !

ــ ألا يمكن أن يصلح الطبيب ما فسد ، فتعود إلينا ؟ ؟

ولم تغرورق عيناه بالدموع ، ولم يبدُ الألم فى وجهه ، وإنما اكتسى جبينه صرامة واضحة ، فارتجف قلبها ، لا لمأساة الموت التى لم تكن لتفهمها أو تعقل أحكامها ، بل لأن حديثها أغضب والدها ، وهى لا تحب أن تغضب أعزّ الناس إليها .

وظل على صرامته أياماً ثلاثة ، لا يكلمها فيها أو يبادلها أكثر من تحية الصباح والمساء ، حتى غمرها الشقاء ، فأوشكت غير مرة أن تركع بين يديه باكية مستغفرة ، ولم يمنعها من أن تفعل ذلك إلا معرفتها التامة بأنه يكره الدموع ، ولا يقر الضعف مهما كانت دوافعه .

وتعلمت فى ذلك اليوم درساً لا ينسى : هو أن تترك قصة الأم جانباً ، وأن لا تعود إلى الخوض فيها ، قانعة

بالتطلع إلى صورتها الكبيرة المعلقة فى البهو ، ومناجاتها بألفاظ عذبة بعيداً عن نظرات أبيها الكاشفة ، ورقابة مربيتها الحازمة . . . وقامت بين الطفلة والصورة صداقة متينة متبادلة ، فيها أحاديث وهمسات لا يسمعها غيرها ، وفيها حوادث ووقائع نسجها خيالها الخصيب ، وغذتها وحدتها المقيمة ؛ فكانت إذا ضاقت بدميتها « ميما » ألقت بها جانباً ، لتجلس تجاه الصورة ، وتروى لصاحبتها قصة متاعبها وآلامها .

ولكن أميرة فى الحقيقة لم تشعر قط بالحاجة الملحة إلى بعث الصورة ، وخروج صاحبتها من إطارها إلى حيز الحياة النابضة ، فقد كانت أمها أسطورة فقط ، جمالها وسحرها فى غموضها واستحالة وجودها ؛ ولو تحقق البعث ، لفقدت الصغيرة مادة غزيرة تغذى عاطفتها وخيالها . . . ولم تكن ترتضى بالخيال بديلا منذ ذلك اليوم الذى كانت مشغولة فيه بحديث مع أمها ، فزيّن لها الموقف أن تعتلى مقعداً ، وتلمس الصورة بيدها ، فلما فعلت ردتها برودة الزجاج ردًّا قاسياً انقطع الحديث معه أسابيع متتالية . . . كانت تجربة مرّة قفزت بها دفعة واحدة من عالم الخيال الدافئ إلى دنيا الحقيقة الباردة ، فأحست بأنها أجرمت فى

حق نفسها ، وفى حق صاحبة الصورة حين دنت منها ولمستها ، وعاهدت النفس مخاصة أن لا تعود إلى فعلتها مرة أخرى .

ثم إن الإحساس بالحاجة إلى عاطفة لا يكون إلا بحرمان النفس مما يماثلها ، ولكن قلب أميرة لم يكن مفتقراً إلى الحب والحنان ، لتفتقد أمها ، أو تشعر بالحاجة إلى وجودها ، فهى لم تعرف حب الأمومة يوماً ، ولم تخبر متعه ومباهجه ؛ فضلا عن أن والدها قد ملأ عليها حياتها بطريقته الخاصة التى قد يخطىء فهمها كثيرون ممن جبلوا على التعلق بأعراض العواطف دون جواهرها . ولو لم تكن أميرة ذواقة بطبعها للإحساسات المرهفة ، لما نجحت وهى طفلة صغيرة فى الوصول إلى غور قلب أبيها الصارم ، لتنهل من ينابيعه الغنية بحبها ، فتشغف به ذلك الشغف الملحّ طوال حياته وبعد مماته .

كانت تحبه كل الحب ، وتفهمه كل الفهم ، ولا يحيّرها من أمره إلا عزوف عمّا كان يسميه ضعف العواطف السخيفة ، وهو ما كانت تراه إذ ذاك راحة للنفس وتفريجاً للكرب . . . وإن تنس لا تنسى يوم كانت تلعب فى حديقة دارهم ، فسقطت على الأرض سقطة اقتلعت ظفر خنصرها ، فجرت

إلى أبيها تبكى والدماء تنزف من الجرح . وألقى عليها نظرة رهيبة صارمة ، ثم قال قبل أن يستدعى الطبيب : إننى خجل منك ، فأنت ضعيفة واهية العزيمة ، يغلبك الألم ، ويهزمك ظفر صغير . جففى دموعك حالا ، وأثبتى أنك أقوى من الجرح مهما بلغ .

ومع ذلك ظل بقية اليوم ، وطوال الليل قلقاً حائراً يسعف الجرح بالعلاج طبقاً لأوامر الطبيب ، ويستفسر كل ساعة عن حالها ، ولكن فى خشونة ملموسة ؛ فلما شفيت أصبعها ، ونما فيها ظفر جديد ، كانت قد تعلمت أنه من حقها أن تشعر بآلام الجسد ، ولكن الاعتراف بها مهانة تأباها الكرامة الشامخة . فلم تبك بعد ذلك أوجاعاً ، واكتفت بأن تألم صامتة ، وأن تبلغ والدها أمر آلامها فى صورة تقريرية لا تصحبها دموع أو تنهدات .

وإن تنس لا تنسى أيضاً يوم اختلفت مربيتها ووالدها فى بعض الأمور ، فأصرت المربية على ترك عملها بالرغم من أنها قضت تحت سقف البيت سنوات عدة . وهلعت أميرة لفراق صديقتها العزيزة هلعاً أبكاها بكاءً حاراً ، فتجلت الصرامة على وجه والدها ؛ وأشار إليها أن تقترب منه ، وقال :

– لماذا تبكين ؟

– لأننى أحب مربيتى .

– وهل رأيتنى أطردها ؟

– لا ، بل هى التى أصرت على الخروج .

– إذاً فهى لا تريدنا ، ومن لا يريدنا لا يصح أن نريده أو نحبه .

– ولكنى لا أقوى على فراقها .

– بل ستقوين على الرغم منك ، ولن تكونى ابنتى العزيزة إلا إذا استقبلت الناسِ باسمة إذا أقبلوا ، وودعتهم باسمة إذا انصرفوا . دعى الحياة تسير بمن فيها : نفر يجىء ، ونفر يروح ، وأنت واقفة فى مكانك لا تتحركين . أترضين أن أستعطفها لتبقى ؟

وكانت قد ورثت عن أبيها قسطاً كبيراً من الأنفة ، وحازت بجواره قسطاً أكبر ، فاضطربت لمجرد الفكرة ، واستنكرت أن يكون ذلك ، قالت :

– لا ، لا يصح أن نستعطفها .

– ولا يصح أن نجثو لمخلوق ، ولو كانت حياتنا فى يده ، ففى جثونا مهانة ، وفى ترفعنا عظمة وجلال . كونى قوية كالحياة ، وإلا صرعتك الأيام بعد جولة واحدة .

– وكيف أكون قوية كالحياة ؟

– بأن لا تتغلغلى فى أحداث الدنيا ، فقفى منها موقف المشاهد فقط . أرأيت الحياة تهتز لمولد مخلوق أو لموت مخلوق ؟ أبداً ، فالناس تفد عليها ملايين ، وترحل عنها ملايين ، والحياة تنظر إليهم من بعيد ، لا يطربها مجيئهم ، ولا يحزنها رحيلهم ، لأنها أسمى من أن تتطاول الأحداث إلى مقامها الرفيع .

ولم تفهم قليلا أو كثيراً من فلسفته ، وإن كانت قد حدست أنه يعنى خطأها فى حزنها على مربيتها ، أو على من يختفون من حياتها مهما بلغ حبها لهم ، قال :

– لا تظنى أننى أقسو عليك ، فلست أبتغى غير مصلحتك ، وهى تتطلب منى أن أقويك ، لأنك وحيدة .

– لست وحيدة وأنا معك .

– ولكنى لن أبقى لك أبد الدهر ، فسأموت يوماً ، وإذ ذاك تجابهين الدنيا وحيدة . أو تذكرين حواجز الأمواج الصخرية المصطفة على شاطىء الإسكندرية ؟ لقد سألتنى ذات مرة عن فائدتها ، فقلت إنها ترد طغيان الأمواج عن الطريق . ولقد مضى على وجود هذه الصخور سنوات ، والأمواج تلطمها ، فلا تتفتت أو ينالها عطب . أريد أن تكونى مثلها تضربك أحداث الحياة ، فلا تهزك أو تنال منك .

ومنذ ذلك اليوم حرص أبوها على أن لا تبقى مربية فى البيت مدة طويلة تفادياً من تعلق قلب أميرة بحبها : فجاءت مربيات ، وذهبت مربيات ، والطفلة تألم صامتة ، ولا تستطيع الخلاص من ألمها ، لأنها كانت بطبعها مخلوقاً عاطفياً يتعطش إلى الحب وينشد الاستقرار فيه . . . .

وعلى مر الأيام خف ألمها على الراحلات تدريجاً ، وبدأت تعتاد التنقل شيئاً فشيئاً ، وتستمرىء ما فيه من تجديد وتغيير ، حتى جاء الوقت الذى كانت تضيق فيه بالمربية إذا طال العهد بوجودها ، وترجو بينها وبين نفسها أن يحين وقت خروجها وتستبدل بها غيرها ! !

وكما كانت المربيات يتغيرن فى البيت ، كانت صديقاتها يتبدلن فى حديقتها : يأتين إليها بدعوتها ، فتقبل عليهن بكل ما فى قلبها من قدرة على الحب والوفاء ، وتغالى فى تكريمهن حتى لتأذن لهن فى اللعب « بميما » ، وهو أقصى مظاهر السخاء عندها ، إذ كان الوصول إلى دميتها أمنع كثيراً من الوصول إلى قلبها . . . وتتصل الصداقة بعض الوقت ، ثم تنفصم عراها بدافع مللها منهن ، فيذهبن ، ليفسحن الطريق لفوج جديد ! !

ويصفو مزاج أميرة أحياناً ، فتأسف على تنكرها

لصويحباتها دون سبب أو داع ، ويبلغ بها الندم أن تقسم على وصل ما انقطع ، وأن تكفر عن إساءاتها لهن بقسط مضاعف من عطفها عليهن . وتستدعيهن ثانية ، فإذا بهن مجيبات لدعوتها فى غير تمنع أو تردد ، راغبات عن عتابها ولومها ، مغتبطات كل الاغتباط برضاها عنهن . . . فيتحرك فيها شيطان الملل من جديد ، ويدفعها إلى طردهن ، وقد ازداد إحساسها بقوتها المسيطرة .

ولكن هذه التغيرات والتبدلات لم تقوَ يوماً على ولوج حجرتها ، ففى تلك الحجرة كانت أميرة تحيا حياتها الخاصة العامرة بالحب والوفاء والخضوع ، وهى إحساسات تعلمت أن تكبتها أمام الناس ، لتكون أقوى من الدنيا ومن فيها .

وتعود الذكرى بأميرة إلى حجرة طفولتها ، فتعجب كيف جعلها الخيال مملكة واسعة فيها الحاكم ، وفيها المحكوم ، وفيها ما يقوم عادة بين الاثنين من صراع لا ينتهى إلا بانتهاء أحدهما . وكانت المملكة غرفة مربعة فى جانب منها بروز ملحوظ به نافذة تحتها أريكة لينة ، وبجانب الجدار المقابل لها خزانة مغطاة بمرآة ينعكس عليها ضوء النافذة ، فلا تكاد تبرز على صفحتها صورة من الصور . وكان بجوار

الجدار الثالث منضدة صغيرة ، يقابلها فى الناحية الأخرى سرير معدنى أسود يحيط بقوائمه الأربعة العالية إطار من النسيج الأبيض المطرز . . . وفى وسط الغرفة ، وبين هذه الأشياء ساحة فارغة اتخذتها أميرة ميداناً للعبها ولهوها .

أما حاكم هذه المملكة ، ودكتاتورها الوحيد ، فقد كان دمية كبيرة الحجم أسمتها « ميما » ، استطاعت برغم قبحها أن تسيطر على قلب أميرة وأن تحدثها بما لم يحدثها به أحد قبلها . . . ولميما هذه قصة ، فيوم بلغت أميرة عامها السادس ، صحبها أبوها إلى حانوت معروف ، لتنتقى منه الهدية التى تريدها . وركزت اهتمامها فى الدمى ، وجعلت تستعرضها المرة تلو المرة ، دون أن يستقر رأيها على اختيار واحدة منها ، ثم لمحت فجأة دمية قبيحة الشكل أخفاها صاحب الحانوت فى ركن من الواجهة ، فقبعت فيه خجلة متوارية ، كأنها تخشى أن تزعج الناس بوجهها الدميم . واختطفت أميرة الدمية القبيحة لهفى عليها ، وأصرت على أخذها برغم المحاولات الكثيرة لإغرائها باختيار أخرى جميلة ، ثم عادت بها إلى البيت فرحة راضية .

ولم تمض أيام معدودات حتى سيطرت ميما على صاحبتها كما لم يسيطر عليها أحد من قبل ، فغدت مالكة قلبها

ومشاعرها : تبكيها أو تضحكها ، تشقيها أو تسعدها ، تذلها أو تعزها ، وأميرة خاضعة مطواعة لا تتطلب من دميتها تفسيراً لسلوكها ، ولا تفكر فى الخروج على سلطانها ، اللهم إلا إذا اقتحم أبوها الحجرة عليهما فى عزلتهما ، وإذ ذاك تنقلب الفتاة من أمة ذليلة إلى سيدة ذات أنفة وكبرياء : تمتهن دميتها ، وتسخر من قبحها ، وتعيب عليها ضعفها ، فإذا خلت بها مرة أخرى بكت واستعطفت واستجدت منها الصفح والمغفرة .

وقامت بين الاثنتين صلة تجسمت فى خيال أميرة حتى غدت حياة نابضة فيها أحاديث وأحداث تؤثر فى مزاجها وتشغل ذهنها بعض الوقت ، ومن ذلك أن اصطدمت أميرة بالحائط مرة ، وهى تحمل دميتها ، فكُسر مكان الظفر من يد مميا ، فربطت أميرة الكسر بلفائف صغيرة ، واحتضنت الدمية ، وظلت تبكى جرحها حتى احمرت عيناها . . . فلما جلست مع أبيها إلى مائدة الغذاء ، وسألها عما بعينيها ، كذبت للمرة الأولى ، وقصت عليه قصة طويلة من نسج خيالها ادّعت فيها أنها كانت تلعب فى الحديقة ، فمرت فتاة شريرة خارج السور ، ورمتها — لا لسبب أو مسوّغ — بحفنة من التراب حمل الهواء بعضه إلى عينيها .

قال أبوها :

— وماذا فعلت بالفتاة ؟

— لا شىء ، تركتها تذهب لشأنها .

— ولماذا تركتها تذهب لشأنها ؟

— وماذا كنت أفعل بها !!

قال :

— ألم أعلمك غير مرة أن تردى الإهانة بمثلها ؟ ألم أقل لك إن التساهل فى هذه الأمور مضيعة الكرامة ؟ كان يجب أن ترميها بحفنة من التراب كما رمتك ، لتكونى قد انتقمت لنفسك . أما أن تعودى إلى البيت صاغرة ، فمعناه أنك خفت منها . أأنت جبانة ؟

— لا ، ولكنى لا أعرفها .

— المعرفة أمر ثانوى ، أما الأساسى فأن تنتقمى لنفسك ، وتردّى الإهانة بمثلها ، فالدنيا لا تعترف بالضعفاء ، والبقاء فيها للأقوى . إن لم تستطيعى أن تكونى قوية ، فتظاهرى بالقوة على الأقل . لا تقبلى إهانة من أحد ، ولو كان أقرب الناس إليك . إذا لطمتك فتاة فالطميها ، وإذا شتمتك فاشتميها أضعافاً مضاعفة ، ومهما قاسيت من أجل ذلك ، فقد أرضيت عزتك . لسنا أغنياء

يا بنيتى ، ليغطى المال نقصنا : ثروتنا كرامتنا ، فاحتفظى بها ، وإلا أملقت من كل شىء ! !

وقام أبوها إلى خزانة الأدوية ، وعاد بزجاجة كانت تعرفها وتخافها ، ولكنها فى ذلك اليوم لم ترجف لرؤيتها ، بل توسدت الأريكة راضية ، وفتحت عينيها مستسلمة ، ليسكب فيهما أبوها بضع قطرات حارقة ، تقبلتها راضية عقاباً أوجبه عليها كذبها .

ولم تكذب أميرة بعد هذه المرة ، اللهم إلا كذبات بيضاء كانت بعض المواقف توحى بها ، ولكنها فى شبابها تعودت أن تكذب على قلبها ، لتسوّغ له تصرفات غرورها . والعجيب أنها لم تنجح فى حبك كذبها بما يحقق ما كانت تنشده من خداع قلبها ، فكان الأمر ينتهى دواماً بانتصار إرادتها مع ثورة بين جوانحها تفقدها لذة النصر ومتعته .

ومع أن أباها لم يغضب لتقصيرها فى رد الإهانة التى لحقتها ، إلا أنه ظل أياماً يناديها ساخراً بالحوّافة ، فآلمتها سخريته أضعاف ما كان يؤلمها غضبه وصرامته . ولما تكرر النعت خيل إليها أن قصة الفتاة التى رمتها بحفنة من التراب حقيقة لا خيال ، فندمت على تسامحها معها ، وانتوت أن تنتقم لكل إهانة تصيبها ، فلما دفعتها إحدى صويحباتها

ذات يوم مداعبة ، ردت الدفعة لطمة شديدة بكت لها زميلتها بكاءً مراً ، وانصرفت عن صحبتها ساخطة .

وذهلت أميرة لهذه النتيجة التى لم تكن تتوقعها ، ولم يكن يسوّغها منطقها ، فتساءلت : ألم تبادئها الفتاة بالعدوان ، فلماذا إذاً لا تتقبل العقاب صاغرة ؟ ؟ وآلمها فراق صديقتها ، لا لأنها اعتادت الاستقرار فى صداقتها ، بل لأن هذه الصديقة هجرتها قبل أن تملّ أميرة صحبتها ، أو تفكر فى هجرها . وكان من الممكن أن يؤثر ذلك الحادث فى نفسها ، فيردّها بعض الرد عن طغيانها ، لو لم تخفّ وطأة اللطمة على صاحبتها ، إذ عادت بعد أيام تستجدى عطف أميرة حريصة على عدم إغضابها مرة أخرى !

وما كان ليهمها تغير الصديقات أو ثباتهن ، وغضبهن أو رضاهن ، ما دامت ميما باقية على عهدها . فعلى الرغم من انقضاء سنوات ثلاث على شرائها ، ومع نضج أميرة فى خلال هذه المدة واتساع مداركها ، ظلت الدمية محتفظة بمكانتها من نفسها : تستأثر بحبها ، وتصغى إلى أحاديثها ، وتتخيل الفتاة أنها تصارحها برأيها فى كل تصرفاتها ، وتخطّئها فى بعضها غير آبهة لدفاعها وأعذارها .

وأحياناً كانت أميرة تبكى لدميتها ، وتكشف لها عن

خبيثة نفسها ، فإذا هدأت عواطفها ثارت على ميما التى شهدت ضعفها ، فتبغضها كل البغض حتى لتقاطعها أياماً متتالية ، ثم تلين من جديد ، فتعود إلى ميما صاغرة كما كانت صويحباتها يعدْن إليها بعد تكبرها وطغيانها .

وإذا كانت أميرة — وقد تجاوزت اليوم السابعة والعشرين من عمرها — ما تزال تذكر أحداث طفولتها ، وتستعيدها فى ضوء الرشد الذى لم يتوافر لها فى تلك الأيام ، فهى لا تستطيع أن تغفل أو تتناسى أكبر حدث فى طفولتها ترك فى نفسها أبلغ أثر ظل يطاردها طوال حياتها ، ويتكرر فى صور شتى قد تختلف أحجامها وألوانها ، ولكنها تتحد فى معانيها وعظاتها .

ولو علمت أميرة فى ذلك الحين أن ميما سوف تختفى من حياتها ، لتنتقم منها انتقاماً مرًّا ، لترددت ألف مرة قبل أن تقضى عليها . حقيقة إنها لم تكن تقصد أن تحطمها ، ولكنها حطمتها على كل حال ، ووضعت بيدها حدًّا لوجودها وصداقتها .

وتذكر أميرة ذلك الحدث الرهيب ، فيكاد قلبها ينفطر ألماً ، ويتمثل لها كأنه وقع بالأمس القريب ، ولم تمرّ به يد الزمن السحرية الكفيلة ببرء الجراح مهما بلغ غورها

واتساعها . ولقد برّح بها الحزن فى صغرها ، لتحطيم من كانت محور حياتها وموطن أسرارها ، واليوم تعاودها الذكرى ، فيبرّح بها الحزن ثانية ، لأنها فى شبابها واكتمال وعيها ترى أن نهاية ميما كانت نقطة تحول فى عواطفها وإحساساتها .

أما كيف حدثت المأساة ، فلذلك قصة ما تزال تذكر تفاصيلها واضحة : ففى أصيل يوم من أيام الخريف ، ضاقت أميرة ذرعاً باللعب مع صويحباتها ، فصرفتهن غير آسفة ، لتختلى فى حجرتها بدميتها العزيزة ، وتلعب معها اللعبة المفضلة ، أى لعبة الطفلة والمربية . وكانت هذه اللعبة عادة تستنفد ساعات تمر خلالها أحاديث ومناقشات تتخيل الفتاة أن الدمية تشترك فيها ، والحقيقة أن أميرة كانت تتكلم وحدها ، أما ما تسمعه فمحض خيال يصوره لها الموقف .

والأطفال فى لعبهم يميلون إلى تقمص شخصيات الكبار ، ولكن أميرة كانت لأمر ما تفضل أن تكون الطفلة ، وأن تلعب ميما دور المربية . وفى هذه المرة طغت المربية ، واستبدت بسلطانها ، فتمرّدت الطفلة على طاعتها معلنة أنها كبرت وأنه لا تصح معها هذه المعاملة القاسية . واشتد النقاش بينهما ، وانتهى بأن اعتزمت المربية أن تنصرف من البيت إلى غير رجعة ، فانخلع قلب أميرة لفراق مربيتها العزيزة ،

ونزلت عن كبريائها لتستعطفها فى البقاء نادمة مستغفرة . وترددت ميما بعض التردد ، ثم رضيت بالبقاء كارهة ، فقالت لها أميرة :

– ابتسمى الآن فى وجهى ، لأعرف أنك صفحت .

– لا أبتسم لقاسية مثلك .

– لست قاسية بل عنوداً ، ولكنى نزلت عن عنادى وانتهى الأمر .

– لن يكون هذا المرة الأخيرة ، فأنت متقلبة لا يؤمن لك جانب .

– وماذا فعلتُ قبل اليوم ؟

– فعلت كثيراً ، فاحتملتُ أفعالك صامتة . أنسيت كيف تخضعين لسلطانى ما دمت بعيدة عن الأنظار ، فإذا دخل علينا أبوك انقلبت طاعتك تمرداً وعصياناً : تؤنبيننى على أخطائى ، وتتهكمين بقبحى ، وتعيبين علىّ ضعفى ؟ لماذا تتقلبين هكذا ؟ !

– لا تظلمينى ، فأنت تعرفين قدر محبتى وخضوعى لك ، ولكنى أكره أن يعرف بذلك غيرك .

– إذاً فأنت كاذبة جبانة ، تظهرين غير ما تبطنين ، ولا تجرُئين على مصارحة الناس بحقيقتِك ، ومثلك لا يسعد

فى الحياة أبداً ! !

وغلى الدم فى عروق أميرة ، ولم يسبق لأحد أن أنبها هذا التأنيب الجارح ، فتحركت كبرياؤها ، وثار غضبها ، وقالت وقد صرت أسنانها :

— أعيدى هذا الكلام مرة أخرى .

— نعم أقوله وأعيده ، فلستُ أخافك : أنت كاذبة و . . .

وارتفعت يد أميرة دون أن تشعر ، ثم هوت بها على وجه ميما ، ولطمتها لطمة قاسية طيرت الدمية من فوق الأريكة ، وألقتها إلى الأرض قطعاً متناثرة . ولم يبق منها صحيحاً غير الوجه الخزفىّ الدميم ، وقد قبع فى جانب من الحجرة يتأمل الفتاة فى بسمة ساخرة جامدة ! !

وانقطع الخيال فى تلك اللحظة ، لتواجه حقيقة مخيفة ، وهى أنها فى لعبة سخيفة لا أساس لها من الواقع ، حطمت صديقتها الوحيدة ، وأتلفت حبيبتها التى لا حبيبة لها غيرها . وتجلى الهلع على وجهها برهة قصيرة انفجرت بعدها صارخة باكية فى حالة لم يسبق لها نظير . وظلت تصرخ وتصرخ وتضرب رأسها بيديها حتى أقبل أبوها جزعاً ، وقد ظن أنها سقطت فأصابها سوء .

وفى وسط الحجرة رأى أميرة تقف أمام حطام الدمية ،

ففهم من فوره ما حدث ، وناداها مرة بعد الأخرى ، ولكنها فى غمرة محنتها لم تصغ لندائه أو تحس بوجوده ، فأمسك بكتفيها يهزها ويهزها ، حتى انقطع صراخها تدريجاً ، وأخذت شهقاتها المتلاحقة تتباعد شيئاً فشيئاً .

قال لها :

ـ ماذا دهاك ، فتصرخى هكذا ؟ !

ومرت لحظات وهى تبذل قصارى جهدها لتجيبه ، فتخنق العبرات والشهقات كلماتها ، قال ثانية :

ـ أجيبى ، هل جننت فتصرخى وتبكى هكذا ! ؟

قالت متخاذلة :

ـ ميا . . . ميا . . .

ـ أعرف أنها قد هشمت ، فماذا فى ذلك ؟ ألا نستطيع شراء غيرها ؟

ـ ولكنى هشمتها بيدى ، وأنا أحبّ دميتى .

ـ ما هذا السخف ؟ أتحبين إلى هذا الحد دمية خزفية ؟ تعالى معى إلى البهو .

واستدار إلى الباب منتصب القامة ، رافع الرأس ، صارم الوجه ، فخرجت تجرّ قدميها خانعه . وقد خيل إليها أنه مارد جبار . وسار إلى البهو فى خطوات منتظمة مسموعة

تردد وقعها على الأرض فى أذنيها كأنه دوىّ المدافع . وجلس على الأريكة تحت صورة أمها ، فجلست بجانبه صامتة ، وقد دير برأسها ، واختلطت المرئيات فى ناظريها لشدة حزنها . وصفّق بحدة ، فلما جاء الخادم ، طلب إليه أن يحضر كوب ماء ، ثم أمرها أن تشرب ما به ، فامتثلت أمره ، ولكنها لم تستطع أن تجرع إلا قليلا منه .

وكانت تتوقع أن ينهال عليها تأنيباً وتقريعاً ، ولكنه آثر الصمت ، فمضت الدقائق دهوراً طويلة استعادت خلالها بعض هدوئها وثباتها . ولا تعرف أميرة كم مضى من الوقت ، وهما يجلسان جنباً إلى جنب ، ولكنها تعرف أن صمته كان أبلغ تصرف يقوم به أب حكيم فى مثل هذا الموقف .

ومدّ يده إلى جيب سترته ، وأخرج منه علبة فضية صغيرة أخذ منها لفافة وأشعلها ، ثم جعل يدخنها فى أنفاس سريعة جمّعت الدخان حول رأسه فى حلقات متتابعة بدت تقاطيع وجهه من بينها مثل كابوس مفزع .

وأطفأ اللفافة عند منتصفها ، ليلتفت إليها هادئاً كأن لم يحدث شىء مطلقاً ، قال باسماً :

– والآن حدثينى بما جرى .

– كسرت دميتى

ــ أعرف ذلك ، ولكن كيف كسرتها ؟ أظنها سقطت منك عفواً ؟ !

ــ لا ، بل لطمتها لطمة ألقت بها على الأرض قطعاً متناثرة .

ــ ولماذا لطمتها بالله عليك ؟ ؟ ؟ !

ــ لأنها أغضبتنى وقالت ألفاظاً جارحة .

وارتفع حاجباه دهشة ، وجحظت عيناه تساؤلا ، وقال :

ــ وهذه سخافة أخرى ، فكيف يعقل أن تغضبك دمية خزفية لا حياة فيها ولا روح ؟ !

واندفعت دماء الخجل حارة فى عروقها ، حتى أحست أن جسدها كله يلتهب ناراً محرقة ، فما كان ينبغى أن تفصح لوالدها عن هذه الخيالات التى لا يفهمها ولا يستسيغها ، قالت :

ــ إنها لا تتكلم طبعاً ، ولكنى ألعب بها ، وأتخيل أنها تكلمنى .

ــ لعب لا معنى له ، فالدمية دمية ، ولا يصح أن تنظرى إليها بغير هذه النظرة . اذهبى إلى حجرتك ، واجمعى أجزاءها وعودى بها إلىّ .

وعادت إلى حجرتها كارهة ، فما كان أبغض إلى نفسها

من أن ترى مرة ثانية أشلاء ميما متناثرة على الأرض . وأوجع قلبها أن تنحنى وتلتقط أجزاءها مترفقة بها ، كأنها جسد بشرى جريح تخشى أن يضاعف لمسها ألمه وأوجاعه .

ورجعت إلى أبيها تحتضن أشلاء ميما مستبشرة ، فلا شك أنه — وهو القادر فى نظرها على كل شىء — سوف يصلح ما أفسدت من أمر الدمية ، ويعيدها صحيحة سليمة ، قال أبوها :

— لم يعد لهذه الدمية فائدة ، فهيا بنا نلقى بها فى صندوق الفُضالات .

وإذا كانت أميرة قد ذعرت كلّ الذعر عند ما حطمت ميما ، فقد تملكها فى هذه اللحظة شعور جنونى ، اختلط فيه الذعر بالحزن والثورة والغضب ، فانهمر سيل الدمع من عينيها فجأة ، وتعالت الصرخات من فمها ، وهى تقول :

— لا . . . لا . . . لا . . .

— أميرة !

وردّ إليها صوته الصارم الحازم بعض التعقل ، وقد دوّى بين جدران البهو ، فكاد يهزّها هزًّا . قالت فى خليط من الشهقات والصرخات المكبوتة :

ـ لا يمكن أن أرميها ، إننى أحبها ، وأريد أن أحتفظ بها .

ـ اجلسى بجانبي ، ودعينا نتناقش فى روية واتزان ، فإن أقنعتنى تركتك تحتفظين بها ، وإن أقنعتك رميتها فى صندوق الفُضالات .

وجلست على طرف الأريكة ، وهى تضغط بذراعيها على الدمية المحطمة ، كأنها تحميها من المصير الرهيب الذى يترقبها ، قال أبوها :

ـ إنه اتفاق بيننا ، وعلى كل منا أن يحترم تعهداته فيه ، فهل رضيت بهذا الشرط ؟ إن أقنعتِنى احتفظتِ بها ، وإن أقنعتك رميتها .

ـ نعم

ـ بنت عاقلة . والآن أخبرينى ماذا تحملين بين يديك ؟

ـ ميما .

ـ وما هى ميما ؟

ـ دميتى

ـ وما فائدة الدمى ؟

ـ نلعب بها .

ـ وماذا أصاب هذه الدمية ؟

– تحطمت .

– أتستطيعين اللعب بها هكذا ؟

– لا .

– إذاً ، أى فائدة تعود عليك من الاحتفاظ بها ؟

– أريدها للذكرى .

– وهل يسرّك أن تذكرى كل يوم أنك حطمت دميتك العزيزة ؟

وكان كلامه معقولا جدًّا ، فلن تغفر لنفسها يوماً أنها حطمتها بيدها ، وقضت فى لحظة جنون على وجودها الحىّ الناطق . هزت رأسها آسفة وقالت :

– لا ، بل يؤلمنى كل الألم .

– إذاً يجب أن تتخلصى منها : أولا لأنه لا فائدة من وجودها ، وثانياً لأن وجودها سيذكرك بما حدث فتحزنين .

وارتجفت شفتاها مرة أخرى ، وتراءت الدموع فى مآقيها ، فقد كانت عاطفتها أقوى من أن يهزمها منطق أبيها بهذه السرعة . وبنظرة منه إلى وجهها عرف أنه كسب نصف المعركة ، وأنه بمزيد من الإقناع يكسب النصف الآخر ، قال :

ـ افرضى أنى مت ، فهل تحتفظين بجسدى فى البيت للذكرى ؟ !

ـ لا .

ـ كونى واقعية تسعدى فى حياتك : لا تحتفظى إلا بما يفيدك ، أما ما لا يفيدك فألقى به جانباً . إن العواطف الجامحة تلحق بصاحبها الأذى ، فلا تستسلمى لها ، وإلا ذهبت ضحيتها .

ولما تخاذلت إرادتها لكلماته ، وكاد يغلبها منطقه ، أراد أن يضرب الضربة القاضية ، فقال :

ـ أعدك بأن أشترى لك غداً أجمل وأكبر دمية فى حوانيت القاهرة ، والآن هيا بنا إلى صندوق الفُضالات .

وأحست أن يداً حديدية تقبض على قلبها ، فتكاد تعتصره اعتصاراً ، ومع ذلك سارت خلف أبيها ، وهى ما تزال تحتضن أشلاء ميما ، وتزيد ضغطها عليها عسى أن تخترق ضلوعها ، وتختفى بين أطواء جوانحها .

وارتعشت شفتاها أمام الصندوق ، وعادت الدموع تترقرق فى عينيها ، فالتفتت لتهرب من المكان ، ولكن يد أبيها القوية أمسكت بذراعها ، وقالت فى صرامة :

ـ ارميها .

وامتدت يدها بأجزاء الدمية نحو الصندوق ، ثم عادت إلى صدرها ، لتنحنى عليها ، وتقبلها قبلة الوداع ، ثم جمعت أشتات شجاعتها ، وهى تتمتم باسم حبيبتها . وعند ما خيل إليها أنها تغلبت على ضعفها : رمتها رمية أودعتها كل ما فى ذراعيها من قوة . ونظرت حيث استقر ذلك الحطام ، فطالعها وجه الدمية الخزفى ، وقد انفرجت شفتاه عن بسمة جامدة ساخرة ! !

ولم تبك أميرة ، وإن كان الألم الذى حز فى قلبها أشد وأقسى من البكاء ، وعادت مع أبيها إلى البهو ممسكة بيده ؛ وقد أحست أنها ألقت بكل عواطفها وإحساساتها فى صندوق الفضالات ! !

وفى البهو تركت يده ، واتجهت إلى حجرتها فى خطوات بطيئة ، فما كادت تصل إلى بابها ، حتى عادت إلى أبيها مسرعة ، وقالت له :

ــ أبى ، لى رجاء يسير .

ــ وما هو يا بنيتى ؟

ــ أن لا تشترى لى دمية أخرى ، فلست أريد دمى بعد اليوم !

وابتسم لها فاهماً مقدراً ، فردت إليها ابتسامته المحبوبة

بعض هدوء نفسها المفقود ، فمنها كانت تستمد وحى القوة والأنفة ، وفيها تجد متعة لا تعادلها كنوز العالم أجمع . . . ومرت لحظات قصيرة ، وكلاهما يبسم للآخر فى إعجاب متبادل ، ثم فتح ذراعيه ، لتلقى بجسدها الصغير بينهما ، فلما طوتها أحضانه ، أحست أنها انتقلت إلى جنة النعيم ، حيث لا هموم ولا أحزان ولا أسف على ميما . وغابت عن ذهنها صورة الدمية ، وما أصابها ، لتحل محلها صور أخرى زاهية يغلبها التفاؤل ، ويسودها السلام .

ولكن الألم لم يلبث أن عاودها ، وهى وحيدة فى حجرتها ، واشتدت بها وطأته ، حتى تاقت نفسها إلى العزاء ، فجعلت تتلو بعض الدعوات التى تعلمتها أخيراً من مربيتها ، وهى شديدة الثقة بأنها سوف تنزل على قلبها برداً وسلاماً . ولكن الدعوات تخلت عنها ، ولم تمنحها الراحة المنشودة . فظلت تألم وتألم ، ولا تعرف كيف الخلاص من ألمها .

ووقفت فى الحجرة حائرة ، ثم تملكتها رغبة شديدة فى أن تمسك بالقلم والورق ، لترسم شيئاً ما . وتحرك القلم فى يدها سريعاً معبراً ، فلما انتهت من رسمها ، كانت مرتاحة النفس ، هادئة القلب ، تتأمل أمامها صورة رأس صغير فى عينيه لوم وعتاب ، وعلى شفتيه تهكم وسخرية ! !

ودخل أبوها الحجرة يطمئن على حالها ، فذهل لإتقان الرسم وجماله ، وقال :

– من رسم هذا ؟

– أنا ! ! . . .

– ولمن هذا الرأس ؟

– لميا ! !

– ولماذا تنظر هكذا ؟

– لأنها غاضبة عليّ ! !

ومنذ ذلك اليوم اعتادت أن تسكب ما فى قلبها على الورق ، فتتجلى رسومها – إذا قيست بعمرها – بشائر موهبة رائعة . ولم تلجأ فى محنة من المحن إلى الدعوات والصلوات ، فلما كبرت ، واكتمل شبابها ، كانت قلة اكترائها للدين مصدر تهكم بعض زميلاتها ، فكنّ يداعبنها بضعف إيمانها ، فتصغى إلى دعاباتهن صامتة ، وتأبى أن ترد التهمة أو تقرها ، إذ بينها وبين نفسها كانت تشعر أن الفن دينها وعقيدتها .

٢

كانت الشمس قد جنحت إلى المغيب ، فتهادى قرصها منحدراً إلى الأفق فى حياء العذراء ، وهى تتهادى فى موكب زفافها ، حتى إذا تلامس الاثنان ، تحولت الحمرة القانية إلى أضواء صفراء لامعة تنفذ من بين السحب الرمادية كما ينفذ الأمل إلى ظلمات القلوب الشقية .

وتبدت الطبيعة فى أتم روعتها وبهائها ، فالسماء جمال يوحى بالجمال ، وعبير الأزهار يملأ الجو شذاه ، ونسمات المساء تتلاحق فى أنفاس هادئة ، على حين اكتسى الكون بذهب براق بدت الدوح فى أحضانه غيداً يمسن فى خفر ودلال .

وتيقظت أميرة من تأملاتها البعيدة على زقزقة العصافير ، وهى تدور عشرات عشرات حول رءوس الأشجار باحثة عن عشاشها ، لتأمن بين جوانبها شر الظلام ورهبته ، فرنّت الزقزقة فى مسامعها موسيقى ناعمة ، أنغامها أناشيد الأمل ، وترانيم الرضا بالحياة .

وحسدت أميرة العصافير على آمالها الواسعة ، ورضاها بالحياة ، وتمنت لو كانت عصفوراً ، لتعيش فى الفضاء الواسع حرة مستقلة : ترتفع أو تنخفض ، تطير أو تهبط ، مسيّرة بمحض إرادتها واختيارها ، لا وازع لها فى تصرفاتها إلا رغبات فطرية ساذجة ، غير خاضعة لتقاليد أو قيود .

وتململت أميرة فى مقعدها بالشرفة ، وهى ترى القرص الذهبى اللامع يمعن فى خفره وحيائه ، لينسحب خجلا وراء الأفق ، فلما لم يتبق منه إلا قليل ، هبت النسمات ثائرة ، وضاعفت العصافير زقزقتها فى إلحاح وإصرار ، كأنها تستمهل الشمس لحظات أخر .

وواصل القرص مغيبه البطىء غير آبه لثورة أو احتجاج ، حتى إذا اختفى آخر جزء منه ، أطبقت على أفواه العصافير يد سحرية ، فانقطعت زقزقتها دفعة واحدة ، ليسود الشرفة الحجرية سكون شامل وهدوء تام .

وخيّل إلى أميرة أن العصافير وذاكرتها على موعد ، فكما انقطعت زقزقتها دفعة واحدة ، ذهبت من ذهنها صور السنوات القليلة التى أعقبت حدث الأحداث فى طفولتها : أى تحطيم دميتها ، وإقفار حجرتها من أنسها وصحبتها .

وكل ما تذكره من هذه المرحلة من حياتها ، أنها التحقت

بمدرسة خاصة كانت مواهب الطالبات فيها تقاس بمكانة آبائهن ، فكانت تغدو إليها كل يوم ، لا لتتعلم أو تتثقف ، بل لتغافل مدرسيها ومدرساتها ، فترسمهم فى صور ساخرة تنطق بما تحمله لهم من استهانة واستهتار ، فإذا انتهى العام الدراسى ، جاءت الشهادة بنجاحها ، وانتقالها إلى فصل أعلى ، وإن كانت فى الواقع قد رسبت فى كل العلوم ما عدا الرسم ! !

ولم يكن ينقصها الذكاء لتتفوق على لداتها ، ولكن التفوق عادة يكون حيث تكون المنافسة ، والمنافسة كانت معدومة فى تلك المدرسة التى ضوعفت مصروفاتها ، لتكون مجمعاً لطبقة خاصة من بنات أرستقراطيات مدللات ، لا يفقهن فى شئون الحياة إلا الزينة والملبس الأنيق ! !

وليس من الإنصاف أن تدعى أميرة أنها لم تتعلم فى تلك المدرسة الأنيقة جديداً ، فقد كانت تسمع زميلاتها يهمسن بعبارات غامضة إذا سألت أباها عن معانيها ، احمر وجهه غضباً ، وطلب إليها حازماً أن لا تنطق بهذه العبارات مرة أخرى ! !

وتدين أميرة ببدء يقظة أنوثتها إلى تلك المرحلة القصيرة من حياتها الدراسية الطويلة : ففيها عرفت أنها أنثى ،

وفيها تعلمت ما للأنثى من اتجاهات ورغبات . ومن ذلك أن الطالبات كنّ فريقين : أحدهما المعبودات ، وثانيهما العابدات . ويشمل الفريق الأول الكبيرات الناضجات صاحبات السيطرة والسلطان ، وتتزعم هؤلاء « عليّة » ذات العينين السوداوين الواسعتين ، والجسد اللدْن الغض ، والشفتين الممتلئتين جاذبية وإغراء . أما العابدات ، فصغيرات مراهقات تأججت العواطف الثائرة فى صدورهن ، فلم يجدن مخرجاً لها إلا فى حبّ الكبيرات وتبجيلهن .

وكان لكل كبيرة جيش من المحبات ، ولكن جيش عليّة طغى وازداد حتى بعث الحسرة فى قلوب منافساتها ، فكن يرقبنها حاسدات ، وهى تقبل فى الصباح متهادية متمايلة ، وفى انتظارها عشرات وعشرات يتزاحمن على حمل حقيبتها ، والسير فى ركابها ، وكلاهما كان أول مظهر للخضوع والولاء .

أما العرض الممتع ، فلا يكون إلا فى فسحة الغداء ، عند ما تجلس عليّة على مقعد بالحديقة متعالية مختالة ، فتجلس عن يمينها وعن يسارها حبيباتها الكثيرات ، وقد أخفين فى أكفهن وجوهاً مخضبة بدماء الحب والخشوع . وتظل الحبيبة رافعة الرأس باسمة الثغر ، لا تتنازل بالنظر إلى الجالسات ، اللهم إلا من حين إلي حين ، وإذ ذاك

يتضاعف الخجل ، وتتعالى التنهدات ! !

وتطوف بالحديقة تلك المربية الأجنبية التى استحضرها أولو الأمر خصيصاً من بلادها ، لتشرف على البنات ، وتعلمهن تقاليد الأنوثة المهذبة . ويتصل طوافها العسكرى طول فسحة الغداء ، فتقع أنظارها عشرات المرات على المعارض النسوية المتفرقة فى أنحاء الحديقة ، فلا يزعجها ما ترى ، أو يحفزها إلى الاعتراض .

وعند الانصراف من المدرسة يكون عرض آخر ، ولكن من نوع آخر ، ففى خارجها كانت العربات الأنيقة والسيارات الفاخرة تنتظر الأرستقراطيات المدللات ، وعلى مقربة من بعضها يقف شبان ، أغلب الظن أنهم طلبة هربوا من مدارسهم قبل موعد الانصراف القانونى ، ليمتع كلّ نفسه بالنظر إلى صديقته المختارة .

وكان شعور أميرة نحو العرضين يختلف تماماً ، فهى فى داخل المدرسة لا تفقه معنى لحب الصغيرات للكبيرات ، ولا تستسيغ طعماً لهذه العبادة العجيبة التى تتعارض وما جبلت عليه من أنفة وميل للسيطرة ، ولذلك ابتعدت عن الكبيرات والصغيرات ، قانعة هى وصديقتها فاطمة بالتفرج من بعيد .

ولا تدرى أميرة لماذا اصطفت فاطمة كل الزمن الذى

لبثته بتلك المدرسة ، أو لماذا اختارتها صديقة دون الأخريات ، ولعل مرجع هذا أنها كانت تذكرها بحبيبتها القديمة ميا ، فكما قست يد الصانع على الدمية ، فحرمتها نعمة الحسن والجمال ، قست يد الطبيعة أيضاً على فاطمة ، فآثرتها بوجه كبير دميم ، وجسم ضئيل نحيل .

وعند ما دخلت أميرة المدرسة ، كانت فاطمة وحيدة منبوذة تعانى الأمرّين من إعراض زميلاتها القاسيات وسخريتهن ، لأنها كانت قد اقترفت فى اعتقادهن جريمة لا تغتفر ، هى دمامتها التى تؤذى عيونهن المرهفة الناعسة . وكما نبذتها الفتيات ، نبذتها أيضاً محبوبتها عليّة ، وضنت عليها بأبسط مظاهر العطف والرضا ، فلم تكن تسمح لها بالجلوس بين عشرات العابدات اللائى يحطن بها فى فسحة الغداء ، كارهة أن يفسد وجه الفتاة الدميم جمال العقد البشرى الذى يطوقها .

واحتضنتها أميرة كما احتضنت دميتها منذ سنوات ، وأسبغت عليها كل ما فى قلبها من حب وإخلاص ، وانبرت للدفاع عنها فى شراسة لم تعهدها فى نفسها قبل ذلك ، فكانت تضرب كل من تتعرض لها بالأذى والإهانة ضرباً مبرحاً تعاقب عليه بالحرمان من الغداء . ولما تكرر العقاب ،

أقلعت عن الضرب ، قانعة بالبحث عن أدق العيوب الجثمانية فى المعتديات ، لتعيّرهن بها ساخرة ، حتى يذرفن دموع الغيظ والهزيمة ، فلم يمض وقت طويل إلا والبنات يحترمن فاطمة خوفاً من صاحبتها ، وحذراً من طغيانها وبطشها ! !

ولا تنكر أميرة أنها كانت فى بدء الأمر ترقب المعارض النسوية بالمدرسة متحسرة ، وتتوق بينها وبين نفسها إلى الاشتراك فيها تمشياً مع الروح السائدة ، ورغبة فى تذوق هذا الإحساس الذى لم يسبق لها أن مارسته .

وكاشفت صديقتها برغبتها فى أن تجرب حب الكبيرات ، فأقرتها ، ولكنهما اختلفتا بضعة أيام فى اختيار المعبودة : فقد كان من رأى فاطمة أن تكون الحبيبة إحدى المغمورات ، لتنال أميرة من عطفها واهتمامها قسطاً أكبر مما تمنحه عليّة الموزعة بين حبيباتها الكثيرات . فى حين أصرت أميرة على عليّة ، راغبة بذلك فى الجهاد والصراع كى تتغلب على أفراد جيشها الكبير . ولم تلبث فاطمة أن نزلت عن معارضتها ، وأقرت اختيار أميرة لعليّة ، وقد شعرت أن دخولها الميدان — وهى القوية المرهوبة — سوف ينتقم لها ، ويسحق قلب من سحقن قلبها وفزن دونها بعطف المعبودة وحبها .

وفى الصباح التالى لذلك الاتفاق ، وقفت الصغيرات فى انتظار قدوم عليّة ، فلما أقبلت متمايلة متهادية ، تقدمت أميرة واختطفت حقيبة الكتب من يدها ، لتسير بها خلفها علامة الخضوع والحب والإخلاص . وكانت مفاجأة اغتاظت لها الواقفات ، ولكن ثغر عليّة افترّ عن بسمة الظفر والانتصار ، فلم يكن انضواء أميرة ذات الأنفة والكبرياء والجموح تحت لوائها بالحدث التافه فى المدرسة . وتملكها الغرور بسلطانها ، فازدادت قامتها تمايلا وخيلاء ، وهى تسير — لا لتتوجه إلى حجرة الملابس من فورها كالعادة — بل لتطوف بالحديقة الواسعة ، ومن ورائها أميرة خاضعة مطواعة . وتلطفت أكثر مما عهد فيها ، فأنشأت تحيي هذه ، وتسلم على تلك : وهى فى الحقيقة ترمى إلى عرض نصرها الجديد على الكبيرات الحاسدات والصغيرات الواذات .

ولم يكن فى حسبان أميرة أن علية ستمر بها فى أرجاء المدرسة على هذه الصورة الجارحة ، فتملكها الخجل ، ثم بدأ غضبها يثور شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ أقصاه ، ضاقت بحبها المصطنع ، فألقت بالحقيبة إلى الأرض ، وتركتها وصاحبتها ، وهرولت إلى مكان آخر بالحديقة ! !

وبكت علية بدمع هتون ، فلقد كان البكاء سلاحاً

معروفاً فى هذه المدرسة ، ولم تقتصر على البكاء ، بل شكت للصغيرات والكبيرات الإهانة التى أصابت بها أميرة عزتها ، فغضبت المربية على الطفلة المتمردة ، وحقدت التلميذات على زميلتهن الخائنة ، وغدت أميرة بينهن طريدة معذبة .

وكانت تجربة مُرّة خرجت منها ، وهى مفعمة النفس بالغيظ والغضب : تلعن العابدات والمعبودات ، وترقب معارضهن اليومية محتقرة مزدرية .

ولكنها لم تكن تشعر باحتقار وازدراء نحو العرض الآخر الذى تتوالى صوره خارج المدرسة ، فقد كانت على عكس ذلك ترنو إلى الشبان المتناثرين حول العربات والسيارات فى حسرة ولوعة ، وتتمنى اليوم الذى تكبر فيه ، فينتظرها مثل هؤلاء المحبين والمعجبين . وتزاملها أمنيتها هذه فى طريق عودتها ، فما تكاد تصل إلى البيت ، حتى تهرع إلى المرآة عسى أن تحدثها ببوادر النضج والشباب . وتطالعها صورة فتاة صغيرة ما يزال بينها وبين الشباب والنضج سنوات ، فتضرب الأرض بقدمها غاضبة ، وتتعجل الأيام حانقة ، ثم يعاودها اللين والهدوء ، فتبتسم للصورة مشفقة ، وتقول لها حانية :

– سوف يأتى اليوم الذى تكبرين فيه ، وإذ ذاك لن

يكون لك معجب واحد يقف عند باب المدرسة مغترا بنفسه ، بل معجبون ومعجبون ينتظرونك في كل ركن من أركان الطريق ، تفعلين بهم ما تشائين : تعزينهم ببسمتك ، أو تذلينهم بجفوتك ، وهم بين عزتهم وذلتهم لا يملكون من أمر أنفسهم قدر ما تملكين ! !

وفي ظهر يوم من أيام الشتاء الباردة ، شاءت الأقدار أن تنقطع الصلة بين أميرة ومدرستها بعد أن قضت فيها أكثر من ثلاثة أعوام : وكانت فى ذلك اليوم قد فرغت من تناول غدائها مبكرة ، فجلست على مقعد بالحديقة ، وفى يدها كتاب المحفوظات ، وكانت فاطمة بصحبتها تجلس على الحشائش عند قدميها ، تشكو لها ما تعانيه من غطرسة علية وصلفها ونبذها إياها . وامتدت يد فاطمة سهواً إلى تراب الأرض المجاور للحشائش ، فجعلت تعبث به غير عامدة ، إلى أن اتسخ كفها ، وعلق التراب بأصابعها وأظافرها .

ويشاء الحظ فى تلك اللحظة أن تمر بهما المربية الأجنبية ، وتشاهد عبث فاطمة وقذارة يدها ، فينقلب وجهها الأحمر المكتنز ، ويتجلى الغضب واضحاً فى جبينها المخطط بتجاعيد الشيخوخة ، فتصرخ قائلة :

ــ ما هذا ؟

ووقفت فاطمة أمامها خائفة ، وقد أخفت يدها خلف ظهرها ، قالت المربية :

ــ أريني يدك !

فأعادتها متباطئة ، فتجلت قذارتها البالغة ، واستطردت المربية :

ــ أهذه يد فتاة مهذبة ؟

ــ آسفة .

ــ لقد فعلت ما لا يليق بغير فتيات الطريق .

ــ لم أكن أقصد . . .

ــ لا أصدقك ، فامتداد يدك إلى القاذورات دليل على اعتيادك هذا الفعل المشين ، فالمرء لا يأتى فى سهوه إلا ما اعتاد أن يأتيه فى وعيه .

واحمر وجه فاطمة خجلا ، وبرزت على جبينها قطرات العرق برغم برودة الجو ، فامتدت يدها تمسحها ، وإذا بالأتربة تنتقل من كفها إلى جبينها ، وتختلط بعرقه ، فيتسخ كذلك .

صرخت المربية :

ــ أرأيت ما فعلت ؟ !

ولم تكن فاطمة قد تنبهت لما فعلته ، فازدادت حيرتها ، وانفرج فمها الواسع عن بسمة خجلة أساءت المربية فهمها ، فتحرك فيها شيطان الشر ، وقالت :

ـ ألا تكفيك دمامة وجهك ، حتى تضاعفيها بهذا الطين ! !

وكانت أميرة إلى هذه اللحظة ما زالت فى مكانها ترقب المعركة هادئة ، فلما طرقت الجملة القاسية أذنها ، وتجلت لها معايرة المربية الوقحة ، اختلطت المرئيات فى ناظريها ، وتملكها ما يشبه الجنون ، فتحركت من مكانها فى حرص القطة المتحفزة ، ورفعت يدها بالكتاب ، وهوت به على وجه تلك المربية !

ولا تذكر أميرة شيئاً مما حدث فى خلال اللحظات التالية ، إلا أنها كانت تُجر جرّاً إلى مكتب الناظرة ، وهناك سمعت كلاماً كثيراً غاضباً ، ودفعوا بها إلى غرفة صغيرة جانبية .

وفى هدوء الحجرة وسكونها زايلها الذهول ، وعاد إلى ذهنها صفاؤه الأول ، فجعلت تستعيد ما حدث إجمالا وتفصيلا : كيف كانت فاطمة تحدثها بأحزانها ، وكيف امتدت يدها سهواً إلى التراب ، ثم مفاجأة المربية لها ،

وسخريتها بها ، وتنديدها بدمامتها . وغضبت الفتاة من جديد ، وتململت فى مكانها كأنها تستعد لضربها مرة أخرى .

وبعد فترة طويلة فتح باب الغرفة الصغيرة ، لتساق إلى فصلها ، فتحمل كتبها من درجها ، وتعود بها إلى مكتب الناظرة ، فتعطيها خطاباً مقفلاً إلى والدها ، وتبعث بها إلى بيتها فى حراسة إحدى الفراشات .

ولم يكن أبوها قد عاد إلى البيت بعد ، فحمدت الله على غيبته ، لتختلى بنفسها بعض الوقت ، وتدرس الموقف ، وتستعد للمجابهة الرهيبة . وجعلت تقلب الخطاب بين يديها ، وتتساءل عما فيه ، فيزين لها الشيطان أن تفتحه ، ثم تعود تراجع نفسها فى رغبتها غير المشروعة .

ووصل أبوها فى الساعة الثانية ، وسألها فى رفق عما جاء بها من المدرسة مبكرة ، فكان جوابها أن أعطته خطاب الناظرة . . . وفتح المظروف ، وبدأ يتلو الرسالة ، فما قرأ منها سطوراً ، حتى احمر وجهه غضباً ، وقال :

ــ كيف تجرؤين على ضرب المربية ؟

وأجابت متباطئة :

ــ الحقيقة أنها . . .

ــ أسرعى بالكلام .

فتخاذلت قواها ، وقالت مرتعدة :

— لقد عيّرت فاطمة بدمامتها ، فجننت ، ولم أدر ما فعلت .

وانبسط وجهه فى الحال ، وزايله الغضب ، فسألها فى هدوء اقترن بالتعجب عن تفاصيل القصة ؛ وإذ ذاك استعادت بعض شجاعتها ، وحدثته بها صادقة ، ولم تغير فى وقائعها ، أو تنتحل عذراً تسوّغ به فعلتها .

وارتسمت على فم أبيها بسمة خفيفة ساخرة ، وأعاد قراءة الخطاب ، فلما انتهى منه طلب إليها أن تريه كتبها ، وجعل يقلبها واحداً فواحداً ، قال :

— أهذه كراسة الحساب ؟ ولكنى لا أرى فيها غير صور عدّة لرجل أبله سمين . أهو مدرس الحساب ؟

— نعم .

— أما هذه فكراسة التاريخ ، وليس بها إلا بضع كلمات ، ثم صور كثيرة ، لعجوز شمطاء منكوسة . أهى مدرسة التاريخ ؟

— لا ، بل المربية ! !

— وكراسة مشاهد الطبيعة مليئة برسوم حشرات صغيرة لها وجوه النساء ، فما هذه الحشرات ؟

ـ البنات ! !

ـ وما هذه الحشرة الكبيرة التى تتوسطها ؟

ـ إنها عليّة !

وسكت الأب لحظات ، وهو يستوعب فى ذهنه معانى الرسوم الساخرة ، ثم قال :

ـ أتعرفين ما فى خطاب الناظرة ؟

ـ لا . . .

ـ إنها تشترط لعودتك إلى المدرسة أن تعتذرى للمربية على مشهد من البنات ، ثم أعتذر بعدك عن سوء سلوكك ! !

واصفرّ وجهها هلعاً ! فاعتذارها بهذه الصورة أمرٌ تأباه وتكرهه ، أما اعتذار والدها ، فهو ما لا يمكن أن تحتمله أو تقبله ، قال لها :

ـ أأنت على استعداد للاعتذار ؟

ـ لا .

قال باسماً :

ـ ولا أنا . أنت يا بنيتى لا تتعلمين فى هذه المدرسة شيئاً ، فمن الخير أن تتركيها إلى غيرها ، ولكنى أنصح لك أن لا تضربى بعد اليوم ناظرة أو مربية ، وإلا لزمت البيت جاهلة !

ولم يتحدث إليها فى هذا الموضوع بعد ذلك ، واكتفى بأن عهد بها إلى مدرسين خاصين يعدونها خلال الأشهر المتبقية من السنة حتى يتيسر إلحاقها بمدرسة ثانوية جديدة افتتحت أخيراً على غير نظام التعليم النسوى فى ذلك الوقت ، لتمهد للبنات فرصة دخول الجامعة .

وهنا تخبو الذكريات بأميرة ، فتغيب عن ذهنها صور ماضيها طيلة تلك الشهور العامرة بالدرس والتحصيل ؛ ولا يتبقى منها غير ظلال خفيفة ، لانصرافها إلى كتب تفتح وكتب تقفل ، وعلى صفحاتها تتراقص وجوه شاحبة ضامرة ، لمدرسين كثيرين قد يختلفون فى سماتهم وتقاطيعهم ، ولكنهم يتحدون فى تلك الخطوط العميقة التى تحفرها مهنتهم على جباههم ، لتكشف عما يسرونه فى قلوبهم من ضيق وملل سأم .

ولكن ضوءاً لا يلبث أن يسطع فى ذهنها ، فتنقشع تلك الظلال عن صورة حية تبرز أحداث يوم مشهود ، هو يوم دخولها المدرسة الجديدة أول العام ، ففيه حزنت وفيه كرهت وفيه غضبت ، وتنافرت أحاسيسها الثلاثة وتضاربت ، فتحيرت لأيها تستجيب : أتبكى أم تسخط أم تنتقم ؟ ! وطالت حيرتها حتى انتهى اليوم ولم تجنح إلى واحد منها ! !

ولم يكن عجيباً أن تقبل مستبشرة متفائلة على اليوم الأول فى مدرستها الجديدة ، ولا أن تقضى شطراً مذكوراً من الليلة التى تسبقه فى تنظيم زيها المدرسى ، ولا أن تستيقظ للاستعداد والفجر لما ينبثق نوره ، فافتتاح العام الدراسى يوم مذكور فى حياة كل تلميذة ، قد تقدم عليه كارهة بعد عطلة الصيف الطويلة ، ولكنها لا تستطيع أن تنكر ما فيه من لذة غامضة يثيرها ترقب الكتب الجديدة والوجوه الجديدة والنظم الجديدة .

ولكن العجيب حقاً أن تستبشر وتستعد وتلتذ ، وتتجه مع أبيها إلى المدرسة ، وكلها يقظة وحماسة واهتمام ، فيتنكر لها اليوم الموعود ، ويصدمها بما لم تكن تتوقعه ، لتطاردها ذكراه فى كل مفتتح عام دراسى بعده ، وترتسم آثاره بقلبها على مرّ السنين .

وكان أول ما انقبض له صدرها ذلك الزقاق الطويل الضيق الذى ينتهى بمدرستها الجديدة : فعلى أرضه انتثر ما خيل إليها أنه قاذورات المدينة كلها ، وعلى جانبيه قامت بيوت عتيقة تنتظر أول هزة أرضية ، لتتداعى فوق من فيها ، فتريح الناس من قبحها ، وتريح سكانها من شقاء حياتهم فيها . وبالرغم منها تذكرت مدرستها السابقة الأنيقة ،

وما حولها من شوارع واسعة نظيفة فيها قصور شامخة ، وفيها بيوت عالية ، وفيها من لا يعرفون الأزقة ، ولا يحسون بوجود سكانها .

وتهادت السيارة أخيراً ، ووقفت بباب المدرسة ، فتركها أبوها بعد نظرة تشجيع ، وقال وهو يهم بالعودة :

ــ لا أريد أن تفصلى من هذه المدرسة ، فاعملى يا أميرة جهدك على البقاء بها .

ودخلت أميرة من الباب إلى فناء نظيف حجبته عن الخارج أسوار عالية تحول بين البنات والعيون المتطفلة . ويقسم هذا الفناء جدار حجرى مرتفع ، فى ناحية منه حجرات صغيرة متلاصقة أشبه ما تكون « بزنزانات » السجون ، وفى الناحية الأخرى بناء كبير جميل تطوقه حديقة فسيحة عامرة بالثمار والأزاهير .

وفيما بعد عرفت أميرة السر فى الانقسام ، فالبناء الكبير بحديقته الواسعة حجرات الدرس ، ومكان لعب البنات ، أما « الزنزانات » ، فمعازل للمدرسين الرجال الذين فرض أولو الأمر فيهم الأمانة فى التعليم ، والخيانة فى القرب من البنات ، فسمحوا لهم بالتدريس ، لينسحبوا بعد الحصة جرياً إلى معازلهم ، ويختفوا فيها وراء الجدار الفاصل ! . . .

ووقفت أميرة فى جانب من الحديقة ترقب ذلك البحر الخضم من زميلاتها المستجدات ، فرأت أنهن ينتمين إلى فصيلة أخرى غير التى عرفتها فى مدرستها السابقة : فصيلة قد تشيع فيها مظاهر العسر والفقر والعوز ولكنها تنطق بالذكاء والاجتهاد والرغبة فى بلوغ المراد . وكل ما أدهشها من أمرهن إجماع على لفّ رءوسهن بعصائب سوداء تخفى شعورهن وآذانهن ، فتضفى عليهن مع السترة الخشنة والقميص ذى البنيقة المقفلة ، مظهراً حائراً بين الأنوثة والرجولة .

ودق ناقوس المدرسة ، فانضوت أميرة تحت لواء جيش الواقفات أمام البناء الرئيسى ، حيث اعتلت « الضابطة » سلماً حجرياً ، لتنادى بصوتها المعدنى الرنان أسماء المستجدات وأرقام فصولهن . وتردد اسم أميرة فى سمعها حادًّا كوخز الإبر ، فتقدمت الصفوف ، حتى وقفت أمام الضابطة ، فابتدرتها :

— لماذا لا تغطين رأسك ؟

ودهشت الفتاة لذلك السؤال ، فلم تكن تعرف أن العمامة السوداء تقليد تفرضه المدرسة على البنات ، قالت :

— ولماذا أغطيها ؟

— لأننا فى بلد شرقى إسلامى له تقاليد يجب أن نحترمها ،

وتغطية الرأس منها . اقتربى منى .

واقتربت أميرة ، فتأملتها الضابطة مليًّا من وراء منظارها السميك ، ثم تبدى الاشمئزاز واضحاً فى وجهها ، وقالت :

ــ لماذا حوّرت زيك المدرسى بما يخرجه عن الطابع الذى ننشده ؟

ــ لم أغير فيه ، فهاهى ذى السترة ، ثم القميص والمجول .

ــ نعم ، ولكن السترة أضيق مما يجب ، والبنيقة أقصر مما يجب ، والمجول أوسع مما يجب ، ولذلك تبدين فيها فتاة أنيقة لا نريدها فى هذا المكان .

وضايق أميرة أن يقال لها هذا الكلام على مسمع من البنات ، فأجابت خجلة :

ــ ألم يأت والدى برسم الزى من إدارة المدرسة ؟

ــ بلى ، ولكن العبرة بالتطبيق ، فبقصة أو انحرافة فيها يتغير المظهر العام ، ولسنا هنا معرضاً للأناقة ، بل مدرسة تعد البنات لدخول الجامعة ، والتعلم فيها مع الشبان ، وهذا يحتم عليهن الظهور بمظهر الرجال الخشنين لا الفتيات الناعمات .

وهبط قلب أميرة ، فمنذ سنوات ، وهى تتعجل الأنوثة ،

لتستمتع بمباهج النضج النسوى ، فإذا بحديث الضابطة يهدد آمالها الحلوة ! !

قالت الضابطة :

— ألا تعرفين نظم المدرسة ؟

— لا ، لم أكن أعرفها .

— ومن أى مدرسة جئت ؟

— من مدرسة (. . .) الخاصة .

وما سمعت الضابطة اسم أميرة مقروناً بالمدرسة الخاصة حتى انحنى أنفها على الورق الذى تمسك به ، وجعلت تقرأ فيه وتقرأ باهتمام ، فلما استوثقت مما أمامها ، قالت فى خشونة :

— قفى مع هؤلاء .

وأشارت بيدها إلى بضع عشرات يقفن إلى اليمين .

وسارت الفتاة خجلة متهادية ، فصرخت فيها الضابطة ، وقد تجلى السخط فى صورتها :

— ليس المشى هكذا . أسرعى ، فلسنا هنا بالأرستقراطيات المدللات !

وتعالت الضحكات المكبوتة من صفوف البنات ، فالتفتت إليهن أميرة ، لتعلم : أمنها يضحكن أم من

الضابطة ، ولكنها بنظرة واحدة ، لمست السخرية بها والعداء لها . واحمر وجهها احمراراً شديداً ، وألحّ عليها البكاء ، ولكن غلبه غيظ دفين وغضب كظيم ، لولا نصيحة والدها ، لأظهرتهما فى أبشع صورة . وقيدت الإحساسات المتضاربة قدميها ، فتباطأت خطواتها عما كانت عليه ، صرخت الضابطة :

ــ ألا تسمعين ما أقول ؟

ــ بلى ، سمعته .

ــ لماذا إذاً لا تطيعين ؟ إننا نعرفك حق المعرفة ، ونعلم السبب الذى من أجله طردتك مدرستك السابقة ، ولكن هنا مكان آخر لا تستطيع فيه شريرة مثلك أن تطلق العنان لشرها . احذرى وإلا ندمت ! !

وسارت أميرة مع زميلاتها إلى الفصل ، فانقضت دروس الصباح ، وهى لا تفقه شيئاً مما يقال أو يدور حولها ، بالرغم من أن جارتها كانت بين آن وآخر تدعوها فى رقة إلى الالتفات إلى الدرس . وأخيراً حان وقت فسحة الغداء ، فنزلت إلى الحديقة كارهة ، وانزوت خجلة فى ركن منها ، ولكن وحدتها لم تطل إذ أقبلت عليها بنات فصلها تتقدمهن تلميذة نحيفة الجسم ، عيناها الواسعتان الجميلتان تنمان على

صلف وكبرياء ، وثغرها اللطيف يبتسم فى سخرية وازدراء ، وروعة جمالها الأخاذ تفسدها مظاهر التصنع والعجرفة .

قالت الحسناء الصلفة :

– أحقيقة أنك ضربت المربية فى مدرستك السابقة ؟

فردت تلميذة ثانية :

– بل ضربت المربية والناظرة .

وهتفت ثالثة :

– وضربت بنات المدرسة كلهن ! !

وارتفعت أصوات البنات ، واختلط بعضها ببعض ، ولم تعرف منها إلا كلمة : ضربت . . . ضربت . . . تتكرر فى الأفواه الساخرة ، فتنال منها ما تناله السياط من جسد عليل .

وكانت أميرة قد أوشكت أن تنسى تلك الحادثة ، وتضاءلت حوادثها على مر الزمن ، فلم يبق منها أكثر مما تخلفه فى النفس ذكريات كابوس قديم ، لذلك أدهشها كل الدهشة أن تسبقها تفاصيلها إلى مدرستها الجديدة فى كثير من الكذب والبهتان .

ضربت . . . ضربت . . . ضربت . وتحرك غضبها ، ومعه نسيت نصيحة والدها ، فأوشكت تؤدب المتطفلات ،

لولا أن هبت لنجدتها واحدة من البنات ، وصرخت فى الزعيمة الصلفة قائلة :

– اتركيها وشأنها ، ولا تتدخلى فيما لا يعنيك. تعالى معى يا أميرة.

قالت الحسناء المتعجرفة :

– أتجرئين على انتقادى ؟ !

أجابت المنقذة :

– لست أخافك ، وسيأتى قريباً ذلك اليوم الذى تدول فيه دولتك ! !

وابتعدت بأميرة عن البنات ، وساقتها إلى مقعد فى آخر الحديقة ، فلما جلستا عليه جنباً إلى جنب ، ألقت عليها أميرة نظرة شاكرة ، وإذ ذاك فقط تبينت أنها جارتها فى الفصل : تلك الفتاة الطيبة التى كانت تتطوع بتنبيهها إلى ما يقوله المدرس . ولم يكن فى المنقذة ما يلفت النظر غير زىّ مدرسى عتيق ، وعنق معروق ، وجسد هزيل نحيل ، ولكن أميرة رأت فيها جمالا لا يضارعه جمال .

قالت :

– اسمى خديجة ، وأنا مستجدة مثلك .

ولم تجب الأميرة إلا بإيماءة خفيفة ، فقالت خديجة :

– أراك ما زلت غاضبة منهنّ ، ولكن لا يصح أن تغضبى ،

فقد جئنا كلنا من مدرسة ابتدائية واحدة، وأنت الغريبة بيننا .

– ومن هذه الفتاة التى تتصدر التلميذات ؟

– لا يهمك أمرها ، فعائدة حسناء متفوقة أسكرها غرورها بجمالها وتفوقها ، فتزعمت البنات فى مدرستنا السابقة ، ثم جاءت هنا متمسكة بزعامتها وطغيانها .

– ولماذا تكرهنى البنات ؟

– لست أنت المقصودة بكراهيتهن ، بل هى مدرستك السابقة الأنيقة التى تتقاضى مصروفات مضاعفة ، لتؤمها بنات الأغنياء فقط . إنهن يغرن منك لذلك ! ولكن مالنا ولهذا ؟ حدثينى بأخبار تلك المدرسة ، فلا بد أن الحياة فى مثلها مشوقة لذيذة .

وكانت نفس أميرة قد هدأت قليلا ، فجعلت تروى كل ما عندها ، وخديجة تصغى إليها فى لذة وانتباه ، ثم قالت :

– أأنت آسفة على تركها ؟

– لا فلم أكن فيها سعيدة ولا راضية .

– ومع ذلك ، فأنت من طبقة بناتها الغنيات ! !

– لا أظن ذلك ، فوالدى يقول إننا ميسورون فقط .

– وذلك شىء عظيم ، فهناك من يعتبرون مجرد اليسر ثراءً فاحشاً ، لأنهم يخرجون من بيوتهم فى معظم الأصباح

وبطونهم خاوية ! !

وامتدت يدها سهواً إلى بطنها ، فلم تفت أميرة حركتها ، ولذلك دفعت يدها فى جيبها ، وأخرجت منه قطعتين من الحلوى ، قدمتها لها ، فتبدت الأنفة على الفتاة وقالت :

ــ لست جوعى .

ــ أعرف أنك لست جائعة ، ولكنى أريدك أن تأخذيهما عربون صداقتنا .

ــ إذا كان ذلك هدفك ، فلا مانع من أن آخذها .

وفى لمح البصر كانت الحلوى قد اختفت فى جوفها ، وباختفائها دقّ ناقوس الغداء ، فانضمت الفتاتان إلى الصف الطويل الداخل إلى المطعم فى خطوات عسكرية .

ولم تفطر أميرة فى بيتها بعد ذلك اليوم ، ورأت أن تحمل فطورها شطائر دسمة تقتسمها فى المدرسة بينها وبين خديجة ، فتتقبل هذه نصيبها بلا غضاضة ، لأن رفيقتها لم تكن تمنحها إياه ، بل جعلته عنوان الصداقة الخالصة .

وعلى مر الشهور الأولى اتضحت لأميرة أمور كثيرة ، منها أن البنات فى هذه المدرسة مشتغلات عن الحب النسوى بجهادهن فى الدرس والتحصيل ، ومنها أيضاً أن عائدة حقيقة متفوقة ، لا تهبط عن الأولوية فى كل اختبار شهرى ،

وأن زعامتها تقوم على تفوقها أكثر مما تقوم على جمالها ، فلو استطاعت أن تغلبها فى هذا الميدان ، لقضت على مكانتها ، وأذلت كبرياءها .

وكان التفوق ميسوراً لذكية مثلها ، فانكبت على أوراقها ليلها ونهارها ، لا رغبة فى التعلم والمعرفة ، فكلاهما كان وسيلة بغيضة إلى نفسها ، ولم يكن هدفاً ترمى إليه فى حياتها ، ولكنها كانت تقرأ وتقرأ ، لتسد ما ينقصها ، فتبلغ مرادها . واستجاب نشاطها لإرادتها ، فلم ينقض العام الأول ، حتى كانت تسير إلى العلا بخطوات حثيثة ، فامتلأت غرفة الرسم بلوحاتها الجميلة ، ثم أعلنت نتيجة امتحان آخر السنة ، فكان ترتيبها فيه الثانية ، أى تلى عائدة غريمتها الأولى ! !

وتبتسم أميرة — وهى واقفة بالشرفة تستعرض صور الماضى — لذكرى عامها الدراسى الثانى ، وكيف بادأتها فيه عائدة بعداء مسرف يمتزج بالخوف على مكانتها المهددة ، وكيف اشتبكت الاثنتان فى معارك مقنعة انحازت البنات فيها إلى زعيمتهن الحسناء ، منساقات فى معاضدتها بدافع إعجابهن بها ، ممسكات بأذيال تلك الغيرة القديمة التى تأججت نيرانها فى قلوبهن يوم رأين أميرة بينهن مثلا حيًّا لمدرسة

تضم طبقة غير غير طبقتهن !

ووقفت أميرة ترقب سير الأمور حانقة ، ثم زايلها الحنق ، وقد ازدادت اللوحات المعلقة على جدران غرفة الرسم لوحة جديدة فيها أوزة حائرة لها عيون الغريمة الواسعة ، وعلى فيها يرتسم البله والغباء ! !

وسواء أكانت الإوزة حقيقة تشبه عائدة أم لا تشبهها ، فقد أخذت الصديقة المخلصة خديجة على عاتقها مهمة نشر الخبر بين البنات ، وإقناعهن بأوجه الشبه بين الاثنتين ، فضحكن كثيراً ، وتنافسن فى الدعابات الساخرة ، فجن جنون الزعيمة ، لاهتزاز مكانتها ، ووقفت أمام أميرة تواجهها غاضبة ، قالت :

ـ أو تتحرشين بى ؟

ـ أستغفر الله ! !

ـ ولماذا إذاً تهيننى برسمك ؟

ـ أتبينت شبهك فيه ؟ !

واندفعت حمرة الغضب فى وجه عائدة ، وقالت :

ـ صه . . . لا تهمنى رسومك التافهة ! !

ـ لو كانت تافهة ما اغتظت منها هكذا ! !

ـ لست مغتاظة ، ولكنى مشفقة عليك ، فلن تكسبى

من عداوتى شيئاً .

– بل أكسب كثيراً لو كنت تعلمين !

– إذاً فهى حرب بيننا !

– وسوف تنتهى قريباً ! !

– وإذ ذاك تبكين وتندمين .

– لن يكون البكاء لغير المهزومة ! !

وفى صبيحة اليوم التالى زعجت مدرسة الرسم إذ رأت لوحات أميرة ممزقة على الجدار ، والإوزة الرائعة تختفى تحت بقع كبيرة من الحبر ، فثارت ثائرتها ، وتوعدت الفاعلة بعقاب صارم ، وشرعت تجرى التحقيق لتعرفها ، ولكن أميرة هدّأت روعها باسمة ، ووعدتها برسوم جميلة أخرى إذا تخلت عن وعيدها ، فهتفت مدرسة الرسم دهشة :

– يا لك من فتاة نبيلة .

وكبتت أميرة ضحكة ساخرة كادت تفلت من بين شفتيها ، فقد كان النبل آخر ما ترمى إليه ، والحقيقة أنها أرادت أن تنتقم بنفسها لنفسها ، وكان انتقامها أن علقت فى اليوم التالى على الجدار لوحة كبيرة ، لإوزة مغلوبة على أمرها تبكى وتضرب رأسها بجناحيها !

ولم تشكُ أميرة لناظرة أو ضابطة ، ولم تشكُ عائدة

لناظرة أو ضابطة ، فقد كان دستور البنات غير المكتوب ، دستور العصامى الذى يعتمد على ذراعه فقط ، ويلبى وحده نداء دواعيه ، لا يسنده جاه ، ولا تساوره رغبة فى استجداء عون .

وكانت الصورة الثانية انتقاماً أليماً أسلمت غريمتها بعده أمرها إلى الله ، ولم تعاود تمزيق الصور أو إفسادها بالحبر ، خوفاً من أن تتلوها صور أخرى أشد قبحاً ومهانة . على أن النصر المبين تحقق فى اختبار الشهر الثالث من ذلك العام الدراسى ، إذ انتزعت أميرة منها الأولية ، واحتفظت بها حتى انتهاء عهدها بمدرستها الثانوية ، فذبل وجه عائدة وعلته الكآبة ، وازداد غمها على مر الشهور ، فقد قسمت أميرة جهودها بينها وبين صديقتها خديجة ، ودأبت على مساعدتها حتى جعلتها ثانية الفرقة ، ثم أعلنت بعد ذلك أنها على أتم الاستعداد ، لمعونة كل راغبة ، وشرح ما يغمض عليها من الدروس !

وانتشر الخبر بين التلميذات انتشار النار فى الهشيم ، فذهلن فى بدء الأمر لسماعه ، بل تشككن فى حقيقة الهدف الذى ترمى إليه أميرة من وراء هذا الإعلان . وكن على حق فى تشككهن ، فمبدأ السخاء بالمعلومات معروف للبنين ،

ولكن البنات ينكرنه ويأبينه ، حتى لأهون على الواحدة منهن أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، من أن تلفظ كلمة تعاون بها زميلاتها على فهم ما يخفى عليهن ، وتلك أثرة غرستها فى نفوسهن حداثة عهدهن بالتعلم !

وأردن أن يختبرن أميرة ، فإذا بها مرحبة بكل ما يوجه إليها ، مخلصة فى الإجابة عنه فى غير ملال أو كلال ، فآمن بالمعجزة ، وانصرفن تدريجياً عن زعيمتهن الحسناء المهزومة ، ليلتففن حول أميرة القوية بتفوقها ، السخية علوماتها ، القادرة على امتهان أقوى أعدائها برسم من ريشتها وقلمها !

وتلقت عائدة هزيمتها بصبر واتزان ، فلم تثر أو تصخب ، وطفقت ترقب شئون أميرة ، وقد استتب لها السلطان ، فاستيقظ فيها شيطان الغرور والملل يمعن فى تعذيب من حولها : تصاحب هذه يوماً ، لتهجرها أياماً ، وتحنو على تلك مرة لتقسو مرات ، والبنات بين يديها طيعات يحزنهن جفاؤها ، ويسعدهن رضاؤها ، ولا تغضبهن نزواتها وأهواؤها .... ولم يكن يسلم من أذاها إلا خديجة التى استطاعت – وهى لا شىء – أن تكون فى حياتها كل شىء : تنهرها حيناً ، وتؤنبها أحياناً ، والطاغية مستسلمة لها كما استسلمت

لدميتها من قبل .

وكانت عائدة ترقب غريمتها باسمة ، فهى لا تستطيع أن تنكر إعجابها بقوتها وسلطانها ، وهى أيضا لا تستطيع أن تتجاهل حقدها عليها من أجل قوتها وسلطانها . وليس بغريب أن يجتمع الإعجاب والحقد فى قلب وإن كان موتوراً ، إلا أنه يدين بشرعة البطل الذى يمجد البطولة ولو لم تكن له ، ويجل السيادة وإن كانت لألد أعدائه .

وتعجب أميرة لتصاريف الأيام ، وقدرتها على تغيير مجرى أمور الناس لأهداف بعيدة ، لو كشفت الحجب عن عيون أصحابها ، لكان لهم فيها رأى آخر . ولو لم يكن للأقدار ذلك الهدف البعيد ، ما حدثت المعجزة ، فانقلب العداء بينها وبين غريمتها إلى صداقة حارة ، توثقت عراها بينهما سنين طويلة ، لتعقبها قطيعة وجفوة .

وقد تحققت تلك المعجزة قُبيل نهاية العام الدراسى الثالث : ففى يوم من أيام الربيع كانت أميرة تجلس مع خديجة فى حديقة المدرسة ، وهى صامتة واجمة تفكر فى قرب امتحان شهادة « الكفاءة » ، ومبلغ جهدها فى الاستعداد له . ولو اقتصر الأمر على تعبها الجثمانى والذهنى ، ما وجمت كل هذا الوجوم ، فالاستذكار لا يقلق مزاجها

بقدر ما يتعب صحتها ، ولكنها كانت صامتة واجمة لعوامل عدة : منها الامتحان ، ومنها رياح الربيع الثائرة ، وأهم من هذا وذاك المرض الذى أصاب أهل القاهرة باسم « الدنج » ، وفزع الناس لهوله ، إذ كان يصيب أعزاءهم فجأة ، فتؤدى مضاعفاته الخطيرة بقليلهم ، وتترك كثيرهم ضعافاً هزالا لا حول ولا قوة .

وسرت عدوى المرض إلى المدرسة كما سرت إلى كل حى وكل بيت ، فتناقص عدد البنات ، حتى لم يكن يحضر منهن إلا بضع عشرات ، ركبهن الذعر ، فتباعدن مترقبات تحقيق الخبر القائل بأن الوزارة على وشك إقفال المدارس تفادياً من انتشار المرض .

وخيم على المدرسة جو حزين رددت أهوية الربيع أنينه المقبض ، فعزف البنات عن اللعب والمرح ، وجلسن كل فسحة الغداء جماعات صغيرة ، تهمس بأخبار المرض ، وما أصاب الغائبات من شره : فواحدة تساقط شعرها حتى انكشف جلد رأسها ، وأخرى اهتزت أطرافها اهتزازات عصبية مضطربة ، يشك الأطباء فى قرب زوالها ، وثالثة انتكست فأصابها سعال ملح ينذر صدرها بالخطر .

وحقيقة كان المرض قد فعل كثيراً ببعض البنات ، ولكن الحقيقة الأوضح منها أنه لم يكن يقسو هكذا ، إلا على طبقة معينة أكثر تلميذات هذه المدرسة منها ، تلك الطبقة التى حرمتها ظروف الحياة نعمة التغذية الكافية للتغلب على آثاره وأذياله .

وجلست أميرة وخديجة فى صمت أبلغ من الكلام ، فمرت بهما الدقائق طويلة متباطئة ، وسبحت كلتاهما بذهنها فى عالم قد يختلف عن عالم الأخرى شكلا ، ولكنه يتشابه روحاً ومعنى . واتصل السكون بينهما بعض الوقت ، ثم دوّت آهة مكبوتة ، تلاها صراخ وضجيج ، فلما اتجهت أميرة ببصرها صوب ذلك ، رأت أن جماعة من الجماعات المنتشرة فى الحديقة قد تفرقت عن جسد مسجّى على الأرض .

وتبينت فى لمح البصر أن الجسد لغريمتها عائدة ، وأن الصارخات صويحباتها اللواتى تفرقن عنها مذعورات لجرأة المرض على مفاجأتهن فى عزلة المدرسة وسكونها .

ولا تعرف أميرة كم خطوة خطتها إلى أن وصلت إليهن ، ولكنها تذكر أنها ما كادت تقوم من مقعدها حتى كانت تجثو بجوار غريمتها : تسند رأسها إلى صدرها ، وتسمعها كلمات ، وإن كانت مشجعة ، إلا أن نغماتها أبعد ما

تكون عن الشفقة والحنان .

وتفتحت عينا الراقدة على وجه أميرة ، فانقلبت سحنتها المصفّرة ، وقالت بنفور :

— دعيني ولا تلمسيني ، فلست أريدك .

— وأنا لست أريدك أيضاً ، ولكنك مريضة ،

— لن أتقبل منك عوناً ولو مت .

وثار غضب أميرة ، فنهضت من ركعتها مترفعة ، وتركت رأس المريضة فجأة ، فهوى إلى الأرض فى غير رفق ، ثم التفتت إلى الواقفات ، وأمرتهن بإشارة من أصبعها أن يسعفنها . وأقبلت البنات فى خطى مترددة ، ولكن سرعان ما ابتعدن دفعة واحدة حين رأين المريضة تفرغ ما فى جوفها بين أناتها وشهقاتها .

صرخت أميرة فيهن قائلة :

— هيا تقدمن

أجبن فى نفس واحد :

— لا ... لا ... لا ...

وأنفجر بركان غضبها ، وتركت الراقدة على الأرض ، وأعملت حذاءها فى سيقانهن ، فتعالى منهن صراخ أقبلت عليه الضابطة مسرعة ، وقالت :

– ماذا جرى ؟

ولم تأبه أميرة لسؤالها ، ولا لجواب البنات عليه ، وجثت مرة ثانية بجانب عائدة ، وقالت لها مغضبة :

– رضيت أم لم ترضى سأحملك إلى صيدلية المدرسة .

قالت المريضة متخاذلة :

– لا

هتفت أمير ثائرة :

– إن قلتها مرة ثانية ، لطمتك لطمة لن تنسيها .

وضمت الرأس المترنح إلى صدرها ، وأخرجت منديلها وجعلت تمسح به الرذاذ العالق بوجهها ، فصرخت الضابطة وقد ارتعبت بدورها :

– اتركيها أيتها المجنونة ، وإلا أعديت .

وتطلعت أميرة ساخرة إلى صاحبة الصوت المعدني المؤذي وقالت :

– ولمن أتركها ؟ إن صديقاتها ينفرن منها !

– اتركيها « للفراشة » .

– وما الفرق بيني وبينها ؟ أليست بشراً مثلي ؟

– إنها الفراشة ، يا غبية ، ألا تفهمين ؟

– بل فهمت ، فأسرعي بندائها !

وتعالى الصوت المعدنى فى نبرات زادها الصراخ حدة :

— حميدة ... حميدة ... حميدة ...

ولم تأت حميدة برغم النداءات المتكررة ، فزاد اصفرار وجه عائدة ، وعادت إلى إفراغ ما بقى فى جوفها ، وإذ ذاك جن جنون أميرة ، ولم تقو على مزيد من الاحتمال ، فهتفت بخديجة منادية .

وكانت خديجة إلى هذه اللحظة ما تزال تجلس على مقعدها البعيد ترقب ما يحدث هادئة ساكنة ، فقد عودتها صاحبتها أن لا تتدخل بينها وبين غريمتها ، فلزمت عادتها ، حتى يستدعى الأمر وجودها .

وعند ما سمعت النداء لبته مسرعة ، ووقفت بجوار صديقتها صامتة ، فالتفتت أميرة إليها وقالت :

— هيا بنا نحملها إلى الصيدلية ، فتستريح بها حتى يعيدوها إلى بيتها .

وبجهد كبير تعاونت الاثنتان على حملها ، وسارتا بها متمهلتين مترفقتين إلى أن وصلن إلى الصيدلية ، فأرقدتاها على الفراش ، وجلستا بجوارها تخففان عنها ألم المرض ، وتجففان العرق المتصبب على جبينها ، منتظرتين مجىء الطبيبة لإسعافها ، فلما حضرت كانت فسحة الغداء قد

انتهت ، وهمتا بالانصراف ، فقالت عائدة بصوت خفيض :

ـ أميرة .... سامحيني .

وكادت أميرة تغضب ثانية ، فما كانت تريد بمعاونتها جزاءً ولا شكوراً ، قالت المريضة :

ـ أرجو منك أن تستمعي إليّ .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ أريد أن تتقبلي شكري ، وتسامحيني فيما مضى . إنك عاونتني في محنتي ، ولم تخشيْ العدوى على نفسك .

ـ إنه الواجب فقط .

ـ لا ، بل أكثر منه ، فقد رأيت كيف هجرتني صديقاتي ، وكن أولى منك بأداء هذا الواجب .

ـ حسناً ؟ !

ـ أعطني يدك ، لأصافحك ، فنكون صديقتين .

وعادت أميرة إلى الفصل ، وحرارة يد عائدة ما تزال تحرق كفّها ، وجلست واجمة ، تصغي إلى الدرس الديني ، وكانت حصصه دائماً بعد الظهر ، كأن المعدات المليئة بطعام الغداء ، والأجسام المتعبة ، والأذهان المكدودة ، خير معين على فهم أهم ناحية في ثقافة البنات !

ولم تتبع أميره كثيراً مما يقوله «الأستاذ» ، لانصرافها

إلى التفكير فيما حدث لعائدة ، ثم نشطت حواسها ، وقد لمس الحديث موضوع المرض ، وسمعت أستاذها يقول :

— وهذا الوباء غضب ينزله الله بعباده عقاباً لهم على غوايتهم وضلالهم ، فاتقين مالك السموات والأرض ، واحذرن انتقامه وعذابه .

وجعل يروى صنوفاً من العذاب تقشعر لها الأبدان ، وألواناً من الجحيم تطير لها الألباب ، فتجلى الهلع على وجوه الجالسات ، وأصغين إليه فاغرات الأفواه مذعورات ، كأن الشيطان قد صورلهن ،

قال :

— وهذا المرض جرعة خفيفة مما يدخر للضالين فى الآخرة .

قالت أميرة فى ثورة غاضبة :

— ولكن المرض يصيب الطيبين والشريرين معاً ! !

— نعم ليكون درساً لهم جميعاً .

— ولكن ما ذنب الطيبين ليقاسوه ؟

— ذنبهم أنهم يعيشون مع الضالين ، فلا يردونهم إلى سواء السبيل .

— أهذه عدالة ؟ ؟ !

وأفلتت الكلمة من فمها ، فندمت أشد الندم حين تجلى الاستنكار على وجه أستاذها ، قال وقد صرت أسنانه ،

– أو تجرئين على إنتقاد عدالة الله ؟ اخرجى أيتها الكافرة .... اخرجى من الفصل ، سوف تصلين نار الجحيم دنيا وآخرة !

وكانت أول مرة تطرد فيها من الفصل ، أو تهان بهذه الصورة ، فطأطأت رأسها خجلا ، وخرجت تجر قدميها جراً .

وانقضت الدروس على أسوأ ما تكون حالا ، وشغل وعيد الأستاذ بالها بقية اليوم ، فلما أقبل الليل وهى فى البيت وحدها ، ضاق صدرها بتلك الهواجس ، فوقفت فى نافذة حجرتها تتأمل الفضاء الواسع أمامها .

وكانت السماء فى سواد الأبنوس ، والقمر فيها بدراً يسطع بنوره الوضاح ، والنجوم تتلألأ من حوله تلألؤ الألماس ، ورءوس الأشجار تلتمع تحته فضة متماوجة . وبهرها جمال ما حولها ، فعجبت كيف يسىء أستاذها إلى ربها بأوصافه البشعة ، فمن يخلق هذا الجمال لا شك جميل رحيم .

ومنذ ذلك اليوم تركز إيمانها فى رب السموات وحده دون تفاصيل تقود إليه ، فكانت تحبه فى غير رعب ولا فزع ، ولكن بوحى من الإيمان بالجمال . وازدادت عزلتها الدينية على مر الأعوام . فإذا ما أفرطت فيها ، أنحت باللوم على أستاذها القديم ، وعجبت كيف يسىء المسئولون إلى إيمان الصغار بنين وبنات باختيار مثل هذا الرجل مدرساً للدين ! !

وإذا كان ذلك الحادث لم يكتمل أثره إلا على مر السنين ، فقد أثر مرض عائدة سريعاً فى أميرة ، فبعد أيام ثلاثة أصابها الداء ، وانقطعت عن المدرسة ، واشتدت بها وطأته ، فتساقط كثير من شعرها الجميل ، وهزل جسدها القوى ، واضطربت ضربات قلبها الحساس ، فعلل الأطباء اشتداد المرض عليها بعدوى مباشرة سألوها عن ظروفها ، فأنكرت فى إصرار ، وأبت أن تحدثهم بشىء جرى .

وعند ما شفيت وعادت إلى المدرسة ، أقبلت عائدة عليها فرحة مستبشرة ، وأصرت على أن تكون لها صديقة مخلصة ، بالرغم من عزوف أميرة وزهدها فى ذلك .

وانتهى الأمر بتحقق تلك الصداقة ، وانضواء عائدة تحت

لواء جيش أميرة الجـرّار ، وبتميزها بصلة وثيقة لم يحظ بمثلها غير خديجة .

ولكن هذه الصداقة الحارة قامت على تفاهم متبادل : فقد كانت عائدة تحب أميرة كل الحب ، وتخضع لسلطانها كما خضع غيرها من البنات ، ومع ذلك كانت تداعبها باسمة بأنها سوف ترد لها فى يوم من الأيام « جميل » انتزاع بطولتها منها ، وتقول لها ضاحكة :

ــ لقد غلبتنى يوماً ، وسأغلبك يوماً ، فلتتلقَ كلتانا هزيمتها راضية ! !

وتضحك أميرة كذلك وتقول :

ــ لك هذا ، ولكن فيم تغلبيننى ؟

ــ لست أدرى .... ربما غلبتك فى الرسم أو فى امتحان « البكا وريا » ، أو فى ....

وتهز رأسها ، وقد أعياها التفكير فى مزيد من النواحى الممكنة للغلْب .

وكان لخديجة فى هذا الموضوع رأى يختلف عن رأى صديقتها صاحبة الشأن ، فتنتحى بأميرة جانباً من حوش المدرسة ، وتقول لها :

ــ أنت طائشة فى اندفاعك مع عائدة .

— كيف ذلك ؟

— لست أوافقك على صداقتك الجادة لها .

— وأى ضرر من صداقتها ؟ إنها فتاة طيبة .

— نعم ... طيبة وفاضلة ، ولن تأتى يوماً ما يشين ، ولكنها تتوعدك صادقة ، وسوف تكيل لك يوماً الصاع صاعين ! !

— أعرف هذا تماماً ، وإذ ذاك سوف أتقبل الهزيمة راضية ، فنتخالص .... هذا إذا استطاعت أن تغلبنى ، ولن يكون لها ذلك !

وشهدت المدرسة فى أثناء الأعوام المتبقية للزعيمتين فيها جلسات تضم أميرة وخديجة وعائدة ، وتدور فيها أحاديث لا يسمعها غير ثلاثتهن ، فتغار سائر البنات ، ويتمنين لو أسعدهن الحظ بالانضمام إلى هذا الثالوث .

وتعود الذاكرة بأميرة إلى آخر حديث من هذه الأحاديث ، وكان قبل امتحان البكالوريا بأسابيع معدودة ، وكن يجلسن متحدثات عن المستقبل . قالت خديجة :

— سوف ألتحق بعد الامتحان بمعهد المعلمات ، فأكتسب الرزق بعرق جبينى .

وقالت عائدة :

– سوف أقضى سنوات قليلة فى ثقافة عامة ، ثم أتزوج وأقنع ببيتى .

واستمعت إليهما أميرة مستهينة بآمالها المحدودة ثم قالت :

– أما أنا فقد رسمت مستقبلى ، ولن أغيّر خطًّا فيه : سوف أدرس الرسم ، فأغدو فنانة يتحدث الناس بشهرتى ومجدى ، ويتزلف إلىّ المجتمع ، وتنحنى لى الرءوس تجلة واحتراماً فإذا ما أظلنى المجد أحبنى شاب غنى قوى مشهور ، فأذله بحبى ، وأبكيه بدلالى ، وأتزوج منه بعد ذلك .

ورفعت عائدة رأسها دهشة وقالت :

– وإذا لم يحبك غنى مشهور ؟

– لمَ لا ؟ !

– أو نفرض أنك وفقت إليه ، وأبى منك الذل والهوان ؟

– كيف يكون ذلك ؟

– ليست الحياة كما تظنين .

– لا أفهمك .

– إن سرت وتقاليد بلادك ، اختار لك أبوك شريك حياتك ، وقد لا تتوافر فيه كل هذه الصفات .

– لا ... إن أبى لن يفعل ذلك .

– وإن تنكرت للتقاليد ، وانقدت للحب ، فالحب

أعمى لا يفرق بين غنى وفقير !

وتبدت الدهشة واضحة على وجه أميرة ، فمثل هذه الاحتمالات لم تدخل فى حسبانها ، فضلا عن أنها تهدد خطتها الموضوعة بالإخفاق ، وهو ما لا ترضاه أبداً ، فهزت رأسها مستنكرة ، وقد أبى عليها غرورها أن تجعل تلك الاحتمالات محل بحث أو اهتمام .

قالت :

– بل سوف يأتى كما أريد ، ويرضى منى بكل ما أفرضه عليه ! .

وعادت إلى البيت فى ذلك اليوم قلقة ، لا تلين الكتب ليديها ، ولا تستسلم الكلمات ليعينيها ، فلما أعياها القلق انحت باللائمة على عائدة ، لتدخلها فيما لا يعنيها ، وذهبت إلى المرآة تستفتيها . وطالعتها صورة فتاة طويلة القامة فى اعتدال ، ناضرة الجسم فى أنوثة وشباب ، ليس فى وجهها من معالم الجمال المتعارفة ، إلا عينان واسعتان براقتان ، وشعر بنى صقيل ، إذا انعكست عليه أشعة الشمس التمع بحمرة خفيفة . ولكن الصورة العامة فى المرآة للفتاة الواقفة أمامها ، كانت غنية بتلك الجاذبية الغامضة التى تنبعث من حيث لا يدرى أحد ، فتفوق الحسن ، وتهزم الجمال .

٣

كان موكب الشمس قد ولى ، واختفت عروس السماء بزينتها وبهائها ، لتقيم الأفراح فى عالم بعيد ، فوجمت الكائنات لوداعها ، وتمايلت الأزهار لفراقها ، واستكانت الأطيار فى عشوشها ، خلا حدأة خائفة ضلت وكرها فى الظلمة الزاحفة ، فدارت حول الأشجار حائرة باحثة .

وذابت صفرة الذهب فى الجو الفسيح كما يذوب زبد الأمواج فى البحر الكبير ، فتبدت السماء ملكاً عظيما جباراً ، وتقاربت السحب عشيرة وجنوداً وأتباعاً ، ثم تباطأت النسمات مستضعفة وقد دقت طبول الغسق .

واكتسى الكون بغلالة رمادية مقبضة تسللت إلى الشرفة الحجرية الواسعة ، لتنفث فيها روحاً متشائمة . وأقبلت العتمة القاسية ، فاضطربت النسمات خائفة ، وتحركت الأدواح كأنها هوائم الأشباح .

ولاحت لأميرة تلك اليد الحديدية الجبارة التى تهبط مع الغسق لتعتصر من صدرها قطرات السعادة وذراتها ،

فتلفتت تنشد المهرب من عدوها ، ولكن السكون قيد خطواتها ، وحال الهدوء دون هربها فبقيت بالشرفة لا تريم .

وحمل الهواء غناء كروان بعيد ينشد بين أطواء الفضاء الحانى ألحان الحب والسلام ، فانحسر الرعب عن نفسها ، لتستعيد بعض هدوئها وطمأنينتها . وأنصتت إلى أنغامه متعجبة ، وقد خيل إليها أنه يردد تلك الكلمات التى وضعها على لسان الكروان كاتب إنجليزى : « الحب رائع جميل ، أثمن من الزبرجد ، وأغلى من اللآلىء واليواقيت ، بضاعته لا تعرض فى الأسواق ، وذهب العالم لا يشتريه ! » ...

وسكت الكروان عن غنائه الحلو ، فانتشت الرياح بعبير الشوق والوجد ، وتمايلت الأشجار فى هيام وحب ، وهتفت الكائنات بذلك الطير تستزيده ، فأجابها وعادت الأنغام قريبة واضحة . وتعالى غناؤه وكأنه يقول : « الحب أشد من القوة ، وأبلغ من الحكمة ، وأعمق من الفلسفة ؛ أنفاسه عطر ، وثغره شهد ، وأجنحته فى روعة اللهب الملوّن ! » ...

وأوجع الغناء قلب أميرة ، وخيل إليها أن الكروان قد

تعاهد هو والغسق على تعذيبها وإتعاسها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وتطلعت إلى الفضاء المعتم تعتب على الطير قسوته . وأدركت نفحة من النسيم عتابها ، فأسرعت تتخطى به أخواتها ، حتى إذا وصلت إلى الكروان ، اضطرب صوته الرخيم ، وتسارعت خفقات جناحيه فى الهواء ، وهرب بأنغامه فى أجواء الفضاء مترنماً : « الحب يكمل بالموت ، ولا يفنى فى القبور » .

وكانت تعلم أن الكروان لا يتحدث هكذا إلا فى مقطوعة قرأتها منذ عهد بعيد ، فعجبت كيف نفذ غناؤه إلى غور ذاكرتها ، ليستعيد الكلمات ويحييها ، فتتخيل أنه حقيقة ينطق بها . وحركت المقطوعة أشجانها ، فقامت تذرع الشرفة مسرعة بخطواتها ، لتلاحق ضربات قلبها ، حتى إذا ما خففت بالمشى حدة شجنها ، عادت إلى مقعدها ثانية ، لتستسلم فيه إلى الغسق تعبة لاهثة .

وطوتها العتمة الشاملة ، وتسللت إلى رأسها ، فاختلطت الصور فيه ، وخبا بريق ألوانها ، إلا من صورة واحدة ، انعكست عليها أضواء باهرة تبرز آية الآيات فى حياتها : الحب الذى يكمل بالموت ولا يفنى فى القبور ، فقد كان حبها لأبيها من ذلك النوع الذى يغلب الفناء على قوته ،

ويزيد بالبعد تأججاً واشتعالا .

وكانت تشعر أحياناً أنها مسئولة عما أصاب والدها باشتغالها بحياتها الدراسية عن ملاحظة العلة فى بدايتها ، فيعذبها الندم ، ويؤرق السهاد جفنيها . ولكن غناء الكروان علمها فلسفة جديدة تبينت منها أن موته لم يكن لتهاونها أو إهمالها ، فالعلة كانت قاضية ، لتبلغ أسطورة الحب أوجها ، إذ أن الفراق – وإن قسا – وقود العاطفة ولهيبها .

وعجيب أنها لم تكن تدرك مبلغ حبها لأبيها فى حياته ، لا لأنها كانت تشك فى حرارته وقوته ، أو لأنها كانت تفتقر إلى دواعيه وأسبابه ، بل لأن حبها ظل هادئاً لقربه منها ، وإن كان يملأ نفسها ويحتل سويداءها . وإذا ما تطفلت عليه إحساسات فرعية ، فإنها تغشاه بعض الوقت ثم لا تلبث أن تزول ، ويظل حبها لأبيها راسخاً خالداً .

والحقيقة أن الصلة بينها وبينه كانت أقوى مما تعبر عنه صلة الأبوة والبنوة ، إذ كانت صلة صامتة وقوراً ، لا بحث فيها ولا مجاملات تحجبها قشرة ظاهرة جامدة ، لا يستطيع اختراقها ، والوصول إلى ما وراءها ، إلا من كان مثلها أو مثله ذوّاقاً للحب الحق عزوفاً عن إفساد

حلاوته بالخوض فى شئونه .

وكانت تعرف جد المعرفة أنها كل شىء فى حياة ذلك الرجل المتكبر الأنيق ، وكان هو يؤمن كل الإيمان بأنه مثلها الأعلى الذى سوف يعذبها الجرى وراءه مدى حياتها ، ولكنه كان فخوراً بذلك المثل ، لا يرى الرجولة الحقة إلا فيه ، فلم يسع إلى تحطيمه ولو قليلا ، مرتضياً عذابها المحتوم فى سبيل تهذيب اتجاهاتها وتأمين حياتها .

ولم تكن مغالية فى تقدير مكانتها من قلبه ، فقد كانت نظرته إليها نظرة الصانع الماهر إلى تحفة خرجت من بين يديه مثلا فى الدقة والإبداع . ولا شك أن صناعتها كلفته كثيراً من العناء ، فعواطف طفولتها الجياشة ، ومزاجها الفنى المرهف ، وبوادر أنوثتها الجامحة ، لو أنها كانت تستمع بإحداها لهان أمرها ، ولكن اجتماع هذه الصفات فى صغيرة قدر عليها أن تعيش وحيدة ، وأن تشق الحياة ولا سند لها ، خطر أىّ خطر . واتقاءً لذلك الخطر صورها فى تلك الصورة الجامدة التى ملأته بالرضا عنها ، وجعلتها فى عينه نموذجاً مصغراً له ، فهو إن أعجب بابنته ، فلأنه كان يعجب بنفسه ، ويؤمن بكمال شخصيته وجلالها .

ولم يكن هو أيضاً يغالى فى تقدير حبها له ، فقد كان

إعجابها به مثل إعجاب الحبيبة بحبيبها : ترى فى كل مظهر من مظاهره إبداعاً ليس بعده إبداع . وشخصيته التى عذبت طفولتها بعض العذاب عرفت كيف تمحو آثار المحن التى مرت بها ، وتكتسح أى احتمال لحقد دفين أو ضغينة نحوه . وأكثر من ذلك أنها كانت مأخوذة بسمته الخشن المهيب ، فقامته الفارعة ، وكتفاه العريضتان ، وأنفه الأقنى ، ورأسه الأشيب المرفوع ، كانت فى عقيدتها كل ما يجب أن يتصف به فارس أحلامها المنشود .

وأعجب من هذا وذاك أنها كانت تنظر إلى أبيها نظرتها إلى الهرم الخالد الوطيد : عاش قوياً ، وسوف يعيش دائماً قوياً ، لا تنال منه الأيام ، ولا تمسه الأحزان ، ولا يمكن أن يصاب بشر . وكانت فكرة الموت تخطر ببالها أحياناً غير مقترنة بشخصه بل بشخصها ، لا لأنها كانت من الغباء بحيث تظنه رجلا لا يموت ، ولكن لأن قوته المادية والمعنوية لم تتح لها فرصة التفكير فى احتمال موته : فهو لم يمرض يوماً ، ولم يشك مرة ألماً ، ولم يزد مر السنين خطواته إلا سرعة ونشاطاً ، ثم إنه كان ساحراً فى قدرته على قهر المحن ، وغلب المشكلات ، وبلوغ الأهداف ، فكيف كان يتأتى لها أن تفكر فى غير حياته ، وكل هذه العوامل

دلائل ناطقة بدوام وجوده واستقراره ؟ !

وربما كان ذلك هو السبب فى أنها دهشت عظيم الدهشة يوم قيل إنه مريض ، وذهب بها العجب أن أنكرت على الأطباء دعوتهم الباطلة بعد أن أبى عليها منطقها أن تقتنع بقدرة العلة على التسلل إلى كيان أبيها القوى ، والإساءة إليه إلى هذا الحد الذى ينزل به إلى مصاف غيره من الرجال العاديين . وكان أبوها فى اعتقادها أسمى وأعظم منهم .

والواقع أنها لم تصدقهم — برغم الظواهر المؤيدة لدعوتهم — وظلت إلى اللحظة الأخيرة من حياته تؤمن بأنه سوف ينهض من فراشه ذات صباح صحيحاً معافى ، ليدعم عقيدتها فيه ، ويقوى إيمانها به ، فإذا به يخذلها ، ويموت كغيره من الناس محطماً تلك الصورة الرائعة التى رسمتها له طفولتها ، وقدستها فتوتها وشبابها !

ولولا قصر أميرة جهودها على الإستعداد لامتحان البكالوريا ، لتنبهت إلى بوادر العلة ، وعاونته على التخلص منها ، ولكنها لم تلحظ شيئاً ، لأن أنانيتها البالغة وإثرتها الشاذة أسدلت على عينيها غلالة رقيقة لم تر من خلالها إلا كتبها ودروسها .

وعند ما انتهت آخر مادة فى امتحانها ، وعادت إلى البيت خالية الذهن مستبشرة ، جمعتها وإياه مائدة الغذاء أول مرة منذ شهور ، فجلست تجاهه تحدثه — وهى مقبلة على طعامها — بآخر ما فعلته بغريماتها ومنافساتها . وكان يصغى عادة لمثل هذه الأحاديث باسماً ، فقسوتها — ما لم تخرج عن حدود الأدب — كانت ترضيه ، فيهز رأسه مؤمناً موافقاً ، ولكنها شعرت فى تلك اللحظة أنه لا يتتبع شيئاً مما تقول ، فنظرت إليه مستطلعة . وراعها أن رأته مطرق الرأس ، مصفر الوجه ، مندى الجبين ، محنى الظهر ، فغلبها الذعر ، وقامت من مكانها مسرعة ، ولكنه وقفها بإشارة صارمة من يده .

قالت جزعة :

— أبى ! ؟

— اجلسى

— ولكنك تتألم !

— وماذا فى ذلك ؟ إنه الانحراف الذى يلم بى أحياناً ، ثم لا يلبث أن ينصرف .

— متى حدث لك ذلك ؟

— فى الشهور الأخيرة ، وأنا أحتمله ، فلا تشغلى نفسك به .

– ولماذا لم تخبرنى به ؟

– ولماذا أخبرك به ؟ ! !

– لا بد أن أستدعى الطبيب .

وانحسر قناع الألم عن وجهه ، ورفع رأسه غاضباً ، وقال :

– لست أريد طبيباً ، فعودى إلى مقعدك ، ودعك من هذه العواطف السخيفة .

وعادت إلى مقعدها وقد فارقتها شهوة الطعام ، ومع ذلك ظلت تأكل خشية أن تزيد غضبه بما يسميه العواطف السخيفة . ولكن حزنها وقلقها وضيقها لم تلبث أن زالت فى المساء حين رأته كعهدها به صحيحاً قويًّا كأن ما حدث على مائدة الغذاء لم يكن إلا حلماً رأته فى نومها .

ومرت أيام كثيرة ، عادت بعدها النوبة لتبرح به آلامها ، وتزداد عليه وطأتها ، ثم تقاربت النوبات ، وطالت مدّاتها ، فقلّ خروجه من بيته ، وتكرر انقطاعه عن عمله ، حتى أزف الوقت لالتحاقها بمعهد أو جامعة تواصل فيه دراستها ، ولكنه لم يفاتحها فى هذا الأمر ، وسكت عن بقائها بجواره متناسياً .

وذات صباح من أصباح الخريف ، وقفت أميرة عند

نافذة حجرتها ترقب الطبيعة تجللها أحزانها ، فاسودت الأرض ، وهجرت الخضرة أحضانها ، وتعرت الأغصان إلا من وريقات صفراء جافة يهزها النسيم ، فيتعالى حفيفها الخشن ينذر بالفناء الزاحف فى عروقها ، وتكاثف المزن داكناً يعلن قرب بكاء السماء ونحيبها .

وراعها الجمال الحزين ، ولكنها شعرت أن حزنه مهما بلغ جزء صغير مما يفتعل فى قلبها : فأبوها قد اتصل بقاؤه فى الفراش منقطعاً عن عمله ، وكشفت العلة عن آثارها ، فنحل جسمه واصفر لونه ، ورسم الألم خطوطه الرهيبة على وجهه فانخسف خداه وازداد بروز أنفه . وأشق من هذا أن هجره النوم ، فلم يعد يغمض له جفن حتى مطلع الفجر . وكم من ليلة قضتها أميرة واقفة فى ظلام البهو ترقب دامعةً النورَ الأزرق المنبعث من عتبة باب حجرته ، ولا تجرؤ على الدنو ، فإذا ما نهكها الوقوف نامت على الأريكة ، لتستيقظ على صياح الديكة وقد لاحت تباشير الصباح .

أما لماذا لم تكن تلج حجرته بالليل ، فلأنها أقدمت على تلك الفعلة مرة ، فكاد أبوها ينشق غضباً ، وصرفها عن حضرته حازماً ، فلم تعاود الدخول بعد ذلك إلا فى النهار ،

واكتفت بقضاء الليالى فى البهو قريبة منه .

ولكن جمال الخريف الحزين فى ذلك الصباح ملأها شجاعة وإقداماً ، فانتوت أن تدخل حجرته — لا لتطبع على جبينه قبلتها اليومية المعتادة ثم تسأله تلك الأسئلة الشكلية التى تعرف جوابها مقدماً — بل لتقنعه بضرورة استدعاء الطبيب ، فإحجامه عن الاستنارة برأى الاختصاصيين عناد يضر بصحته .

ودخلت وكلها عزم أن تثبت لثورته المنتظرة ، ولكنه لم يثر ، بل نظر إليها بعينين انطفأ نورهما وقال :

— ليس بى شىء يا بنيتى فلا تجزعى .

— لست جزعة ، ولكنك مريض ، ولكل مرض علاج .

— هى الشيخوخة لا يجدى معها علاج .

— إن الشيخوخة لا يصحبها مثل آلامك التى تقض مضجعك ، وتجعلك سواد ليلتك مسهداً .

وتبدت الدهشة على وجهه وقال :

— وكيف عرفت أننى لا أنام ؟ ؟

— لست غبية إلى هذا الحد ، فالنور المنبعث كل ليلة من عتبة الباب . . .

وقاطعها مغيظاً ، فما كان أبغض إلى نفسه من أن تكشف

عين عن ضعفه وألمه ، قال متحدياً :
– سوف أريك أننى قوى معافى .
ونهض من مكانه يمشى أمامها فى الغرفة كى ترى بعينيها أنها مخطئة فى ظنها ، ولكنه تعثر بعد خطوات قليلة ، فاستند إلى الفراش ، واستجمع ما تبقى من قوته ، لينصب قامته ، ويسير معتدلا ، فلم يكد يصل إلى منتصف الغرفة حتى هوى إلى الأرض ، وهو يتمتم متخاذلا :
– ليس بى شىء . . . ليس بى شىء . . .
وجاء الطبيب على عجل ، ووقفت أميرة خارج الحجرة تنتظر حكمه متلهفة ، فلما مضت قرابة نصف ساعة ، واستبطأت الطبيب ، دفعت الباب ودخلت ، وتقدمت من الفراش مترددة .
وكان الطبيب يقول لأبيها فى حدة :
– وكيف تريد منى أن أقطع الآن برأى ، ولم أقم إلا بفحص أولىّ ؟
قال أبوها خشناً :
– لا تراوغنى بهذه الكلمات فلست طفلا . أريد أن أعرف الحقيقة .
وتبدت الحيرة فى وجه الطبيب وقال :

– لست أنكر أن الحالة شديدة ، ولو كان المرض فى ذراع أو قدم لبترناها ، أما وهو فى البطن . . . ! !

ولم يحتج الطبيب إلى مزيد من الشرح ، فقد فهم المريض ما وراء كلماته ، وعرف العلة التى يعتقد بوجودها ، فارتسمت الدهشة على وجهه ، كأنه لا يصدق ما سمعه . وانتقلت نظراته مراراً من وجه ابنته إلى وجه طبيبه فى تساؤل صامت ، ثم تراخت عن عضلات وجهه مظاهر قوتها ، وألقى بظهره على وسادته مستسلماً .

تنهدت أميرة فى مقعدها بالشرفة ، وهى تستعيد ذكرى حال أبيها النفسية من ذلك اليوم الذى عرف فيه حقيقة مرضه ، إذ بدا لها رجلا آخر لا يختلف عن غيره من الرجال ، يتألم ويعبر عن ألمه بآهات لا يريد أن يخفيها ، ولا يهمه أن يعرفها الناس جميعاً . واستسلم لمصيره استسلاماً تاماً ، فأعرض عن نصائح الأطباء وعقاقيرهم ، كأنه يتعجل النهاية المحتومة ، ويخاف أن يطول به ارتقابها .

وكانت أميرة مدة مرضه نهباً لشعورين متعادلين فى قوتهما : حزنها لما يعانيه أبوها من آلام مبرحة تحس أحياناً أنها تنتقل إلى جسدها فتكاد تمزق نياط قلبها وأحشائها ، ودهشتها لتغيره بما يفسد الصورة الحلوة التى رسمتها له طوال

حياتها : فقد كان يجب فى اعتقادها أن يظل قويا سليما ، يغلب العلل ، ويقاوم الأيام بمثل جبروتها . ألم يعلمها أنه إنسان ممتاز يهزم الحياة ولا تهزمه ؟ ألم يقنعها بتعاليمه وسياسته أنه كحواجز الأمواج تضربه أحداث الدنيا فلا تزيده إلا قوة وثباتاً ؟ فلماذا يستسلم هذا الاستسلام المقيت ، وهو الذى يستطيع بقدرته السحرية أن يطرد العلة ويعود إلى عافيته الأولى ؟

ولا تنكر أنها فى تلك الليالى التى كان يشتد فيها الألم به ، كانت تصغى خجله إلى تأوهاته الشبيهة بالزمجرة ، فعلى الرغم من حبها الشديد له ، وحزنها البالغ لمرضه ، كان يتملكها شعور عجيب يدفعها إلى التلفت حولها خشية أن يكون أحد قد شاركها سماع دلائل ضعفه وهزيمته . وكم حاربت فى نفسها هذا الشعور الظالم ، فلم تنجح بعد جهد إلا فى الاحتفاظ بتجلدها الظاهرى ، وإن أخفقت فى التغلب على تلك الرغبة المكبوتة التى كانت تزين لها أن تمسك بكتفيه وتهزه مرات ، ليعود إلى وعيه فلا يئن على مسمع أو مشهد من غيرها .

ولكن هذه المحنة على شدتها لم تضعف إيمانها بأن العلة مهما قست ظرف طارئ سوف يزول بعد حين ، فيعود

أبوها كما عرفته وكما تحب أن تعرفه دائماً موفور الصحة والعافية .

وفى مساء يوم من أيام الشتاء الباردة ، هبت الرياح تضرب الأشجار فى غير وعى ، فينبعث لها بين الأغصان صفير مزعج تردد فى سمع أميرة نذير شؤم يرفرف فوق رأسها . ولم تكن ممن يخفن الرياح ، فعزت تطيّرها إلى إجهادها البدنى الناشىء عن سهرها كل ليلة فى خدمة أبيها ، ولكن هذا التعليل لم يقنعها أو يردّ الهدوء إلى نفسها ، فسعت إلى الخلاص من الثقل الجاثم فوق صدرها بديوان شعر كانت قد اشترته منذ أسابيع ، وحالت ظروفها دون أن تقرأه .

وكانت منذ دقائق معدودات قد تركت أباها نائماً ، وعزمت أن تفر من العاصفة وتلوذ بالشعر الذى كانت تحبه ، وتجد فى معانيه الرائعة وصفاً دقيقاً لأحساساتها . ولكنها ما كادت تفتح الكتاب ، وتقرأ سطوره الأولى ، حتى اقتحم الخادم عليها عزلتها يبلغها رغبة والدها فى مجيئها إليه ، فجرت وما زال الكتاب فى يدها .

ورأته فى فراشه على حال لم تره عليها فى الشهور الأخيرة : يجلس مستقيم الظهر ، مستجمع القوة ، وينظر إليها بعينين

متألقتين فيهما كثير من ذلك البريق الذى كان يخلب لبها فى عهده الأول . وخيل إليها أن وجهه الضامر قد زاد امتلاءاً بتورده الملحوظ ، وأن أنفه عاد إلى شموخه ، وانفرجت شفتاه عن بسمة خفيفة ردت إلى التجاعيد المحيطة بفمه صرامتها ومهابتها . سألها فى صوت هادىء متزن :

– متى يجىء الطبيب ؟

قالت :

– بعد نصف ساعة على الأكثر ، فقد وعد أن يكون معنا قبل الثامنة ، ولكنى أراك فى أحسن حال .

وهز رأسه متضايقاً كمن لا يريد الخوض فى هذا الموضوع وقال :

– نعم . . . نعم . . . أى كتاب تقرئين ؟

– إنه ديوان شعر كنت أتسلى بتصفحه .

هز رأسه ثانية وقال :

– الشعر جميل ، ولكنه رمز للعواطف التافهة !

وطربت لقوله أضعاف ما طربت لتورد وجهه وتألق عينيه ، فقد أعادت كلماته إليها ذكرى رجلها القديم الذى كان يحتقر العواطف ، ويجد فى الانسياق وراءها مضيعة للوقت . قال :

– اجلسى بجانبى وحدثينى بما تنوين عمله .
– أين ؟
قال :
– إن بقاءك إلى جوارى كل هذه الشهور قد ضيع عليك فرصة الاستفادة من العام الدراسى الحاضر ، ولكنى أرى الوقت قد أزف ، لتتداركى ما فات . أتنوين دخول الجامعة ؟
– لا ، فكل أملى أن أدرس الرسم هوايتى الوحيدة .
– حسناً . ولكن الرسم كغيره من الهوايات والحرف لا يعود عليك بالغرض المطلوب ، إلا إذا كنت واثقة من التفوق بما يحقق لك السمو والشهرة والمجد ، فالممتاز لا يصح أن يكون واحداً من ذلك القطيع البشرى الذى يسعى إلى البقاء دون هدف عظيم يرمى إلى بلوغه .
وسكت قليلا ، ثم قال :
– القوة فى السيادة ، والسيادة فى التفوق ، والحياة من غير تلك وذاك أتفه من أن تتقبلها النفوس الأبدية . أريد – سواء أدرست الرسم أم لم تدرسيه – أن تكونى علماً تتطلع إليه العيون مأخوذة بعظمته . أريد أن تدرسى الفن ، لتغلبيه بقوتك ، لا ليغلبك برقته ، فما يفسد الحياة مثل

الاندفاع وراء عواطف لا تتمشى مع التعقل والحكمة . افعلى كل ما يحلو لك ، ولكن إياك والخروج مما تفعلين ضعيفة مغلوبة .

وتسارعت أنفاسه ، وأجهده الحديث الطويل ، فعاد بظهره إلى الوسائد ، وأسند إليها رأسه تعباً ، وقال :

— اقرئى لى بعض الشعر .

واعتدلت فى جلستها بجوار الفراش ، وفتحت الكتاب عن مقطوعة كانت تعتقد أنها تتفق ومزاجه الصلب ، وقرأت ، وقرأت ، وأنفاسه المضطربة تكاد تعلو على صوتها ، ثم بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً ، حتى لم تعد تسمعها أو تحس بها . واختلست نظرة إليه ، فإذا به قد أسبل جفنيه ، وتراخت عضلات وجهه عما يشبه الابتسامة الهادئة ، وخيم عليه ذلك الهدوء الذى يصحب النوم العميق .

ولم تشأ أن تنقطع عن القراءة دفعة واحدة خشية أن يوقظه الكف الفجائى عنها ، فهبطت بصوتها تدريجاً ، حتى غدا همساً لم يلبث أن تلاشى فى الجو ، وقد ساد السكون . ولم تتحرك من مكانها إشفاقاً على مريضها ، ولم تعاودها رغبتها الأولى فى الاعتكاف لتلاوة الشعر ، فبقيت فى مقعدها ترقب النائم وتنتظر مجىء الطبيب .

وجاء الطبيب ، فما كادت تسمع وقع قدميه فى البهو ، حتى أسرعت إليه على أطراف أصابعها تخبره بنوم والدها وتحسن حاله . وبدا عليه الارتياح لهذا الخبر الطيب ، ولكنه رأى دخول الحجرة ، ليعود المريض .

ورأت أميرة الطبيب ينحنى على مريضه باسماً ، ويده تمسك برسغه ثابتة ، وإذا بالابتسامة تزايل فمه ، ورشح العرق يُندى جبينه ، وتضطرب يده ، فتدور حول الرسغ باحثة . وهبط بأذنه إلى صدر والدها ، وأصغى برهات متتالية تبدت عليه فيها الحيره جلية ، فرفع أصبعه إلى جفن النائم محركاً ! !

قالت وقد تملكها رعب فجائى :

ــ إنه نائم . . . أليس كذلك ؟

أجاب محرجاً :

ــ بلى . . . ولكنه النوم الأبدى .

ــ ماذا تعنى ؟ !

ــ إن والدك قد ارتاح من آلامه المبرحة ، فتشجعى واستعينى بالله على الصبر .

وارتسمت على فم أميرة بسمة متسائلة ، وشخصت ببصرها إلى وجه النائم كأنها تستنكر تلك النهاية التى تودى بما تبقى

من إيمانها بأبيها . وأحست أنها لا تقوى على مزيد من الوقوف ، فارتمت على مقعد بجوار السرير ، وقد استبد بها العجب أن يخذلها والدها هكذا ، ويفاجئها بما لم يكن فى حسبانها قط ، هابطاً بشخصيته الفذة إلى المستوى البشرى الضعيف . وتطلعت إلى أبيها فى عتاب وملامة ، ثم خرجت من الحجرة تجرى باكية صارخة .

ولا تريد الآن أميرة أن تذكر مما حدث بعد ذلك إلا صوراً سريعة منها امتلاء البيت ثلاثة أيام متتالية بوجوه واجمة ، تطوع بعضها بالبكاء والنشيج ، ولم تكن فى حاجة إلى شىء منهما ، فغلبها الضيق والسخط ، وتمنت لو يتركها الناس وحدها محتفظين بدموعهم ، ليذرفوها يوم تحين ساعة من هم أقرب إليهم وأعز عليهم من أبيها .

وعند ما ذهبت تلك الوجوه ، واحتواها البيت وحيدة ، خلت بنفسها ، لتواجه الحقائق فى هدوء واتزان : فرأت أن موت أبيها خسارة نفسية لا مادية ، فقد خلّف لها من المال ما لا يعد ثراءً ، ولكنه يكفى ضرورة حياتها وكمالها . كانت خسارتها إذاً فى اختفائه عن حياتها ، وحرمانها ذلك الملاذ الذى خصته بحبها وإعجابها ، فإذا كانت تقبلت رحيله عنها غير هلعة ولا جزعة ، ولم تذرف عليه إلا دموع المفاجأة

الأولى ، فلأنها كانت تخاف أن تبدى ضعفاً يحس به فى عالمه الآخر فيحتقرها ! . . . ثم إنه علمها أن تكون كالحياة قوية : تستقبل الناس إذا أقبلوا باسمة ، وتودعهم إذا رحلوا باسمة ، وكان كثيراً على مثالها أن تبتسم وقلبها مفجوع ، وإن كانت ترى أن الدموع تسىء إليها ولا ترد عليها حبيبها .

وكان استسلامه لمرضه ، واسترساله فى التعبير عن آلامه ، ضعفاً ما كانت ترضاه له فى حياته ، أما وقد مات فضعفه يملأ نفسها بإحساس آخر عماده الشفقة عليه والأسف من أجله ، وكلاهما يصبغ حزنها بصبغة رقيقة هادئة ، إلا أنها ذات وقع أليم فى نفسها . ومع ذلك فهى لا تنكر أنها تحمد له فى قرارة قلبها أن استعاد شخصيته القديمة فى اللحظة الأخيرة ، لتبقى لها ذكرياته ، وبها أثر من ذلك الطابع الجامد الذى كان يخلب لبها .

بيد أنها اليوم تعرف أن موته أصاب صميم إيمانها به ، حتى خيل إليها أن حياتها قد اتسعت عن فراغ كبير تدور فيه باحثة عن شىء تحس بوطأة فقدانه ، ولكنها لا تدرى ما هو . ومثل هذا الشعور يولد الحيرة والقلق ، ويبعث فى النفس مللا يحول دون هدوئها واستقرارها ، فما ظنك بها

وهى ملول بطبعها ، متقلبة لا تستقر على عاطفة ؟ !

وفى الواقع أنها غدت فى ذلك العهد حائرة مضطربة إلى أبعد حدود الحيرة والاضطراب : إذا فكرت فى أمر انتقل تفكيرها إلى أمور أخرى ، وإذا أقبلت على خطة رجعت عنها وقد زهدت الاستمرار فيها . وضعفت قدرتها عن الاستجابة لكل جديد مثير . فما عاد يبهرها أو يبعث اهتمامها أى لون فى الحياة مهما بلغت طرافته .

وما كان لمثلها أن يرضى بميوعة الأيام ، وتجرد مذاقها من الحلاوة والمرارة ، فجعلت تسعى إلى التغيير ما وسعها الجهد ، ولم تترك ناحية إلا طرقتها ، فكان التغيير لا يزيدها إلا إيماناً بأن الحياة فى كل نواحيها متماثلة متشابهة ، ليس فيها ما ينعش النفس ، أو يكسب الأيام ألواناً جديدة زاهية .

ولم تكن أميرة وحدها فى هذه الفترة ، فبجوارها كانت خديجة وعائدة تزورانها كل يوم ، وتصحبانها فى مبتسر لهوها ، وتقضيان بعض الليالى فى بيتها ، لا يردهما عن الإخلاص لها والتفانى فى حبها ، ما تقاسيان من ألوان تقلبها بين القسوة والحنان . وكانتا متفقتين كل الاتفاق على الخضوع لأهوائها ونزواتها ، مختلفتين كل الاختلاف فى تفسير العوامل الحقيقية

لسلوكها ؛ فقد كانت خديجة تفهم مزاج صاحبتها ، وتقدر ما يعتمل فى قلبها ، فتشفق عليها وترثى لحالها . أما عائدة فكان خضوعها مظهراً من مظاهر عبادتها لمن تغلبت عليها ، ومع ذلك نجحت فى اكتساب حبها ، ولكنها فى قرارة نفسها كانت تعجب لجمود قلب أميرة ، وتستنكر عدم مبالاتها وقلة اكتراثها ، ولم يمض على وفاة والدها إلا أشهر قلائل .

قالت خديجة لها ذات يوم :

ـ وإلامَ تبقين فى البيت هكذا ؟ سوف يودى التعطل بما تبقى من عقلك .

ـ وماذا تريدين أن أفعل ؟

ـ أن تدخلى مدرسة تشغلين بها ذهنك الحائر !

وفهمت أميرة ما ترمى إليه صاحبتها ، وعرفت أن نظراتها الثاقبة قد نفذت إلى أطواء جوانحها ، وكشفت عما كانت تحب أن تخفيه عنها من أحزان وأشجان ، قالت خجلة :

ـ أحب أن أدرس الرسم ، ولكنى أكره أن أنتسب إلى أية مدرسة ، فما عدت أحتمل الخضوع لقوانينها ونظمها .

وحدثتها خديجة عن ذلك المعهد الصغير الذى افتتحه فى بيت أثرى جميل ، سيد الرسامين صلاح الدين ، واتخذ منه

مدرسة خاصة يعلم فيها تلاميذ لا يزيد عددهم على أصابع اليدين ، يختارهم من بين الموهوبين فى الرسم . وأوضحت لها ميزات هذا المعهد : فدروسه تعطى فى المساء ، وتلاميذه طلبة وموظفون يقومون بواجباتهم الصباحية كاملة ، ثم يلجأون إليه ساعة أو ساعتين لتنمية هوايتهم وتهذيبها .

وطربت أميرة للفكرة فى بدء الأمر ، فقد كان فيها كل ما تنشده من حرية كاملة ، لا تقيدها مواعيد صباحية ، ولا يفسدها الاشتغال بغير الرسم ، فضلا عن أن صاحب المعهد كان رساماً قلّما تجود الأيام بمثله ، وكان غاية أملها أن تصل إلى ما يقرب من مكانته فى يوم من الأيام .

قالت خديجة :

ـ وسوف تجدين أن المعهد يناسبك ، فصاحبه وإن كان فناناً إلا أنه رجل ثرى يعمل للفن هواية ، ويعيش فى الطبقة العالية ، وبيته الأثرى ملتقى سيدات الأرستقراطية ورجالها .

وهتفت عائدة :

ـ سأذهب معك إلى هذا المعهد ، وأدرس الرسم كما تدرسين .

وهبطت حماسة أميرة بعد قليل من الحديث فى هذا الشأن ،

فقالت متهربة :

– لا أظن أنني سأدخله ، فإجراءات القبول – ولا شك – عسيرة .

قالت خديجة :

– بل هي أبسط ما يكون ، فما عليك إلا أن تذهبي إلى صاحب المعهد ، ومعك بعض لوحاتك الجميلة ، فيقبلك دون تردد ، لأنك – كما تعرفين – موهوبة في الرسم .

قالت أميرة :

– أو تظنين أنه من اليسير على أن أتأبط لوحاتي ، وأذهب بها لأرجوه واستعطفه ؟

وأسرعت عائدة قائلة :

– سوف أنوب عنك ، فأحمل إليه لوحاتك ، وأتفق معه على دخولنا .

وقطعت الصديقتان عليها خط الرجعة ، فسكتت مرغمة ، وإن كانت ترجو بينها وبين نفسها أن تخفق عائدة في سعيها ، فينتهي الأمر ، وبذلك ترتاح من محنة سلوك طريق جديد تخشى أن تعود من منتصفه زاهدة . ولكن عائدة وفقت في جهودها ، وعادت بعد أيام تبشرها بنجاح سعيها ، والموافقة على انتظامهما في سلك تلاميذ المعهد ، قالت

ضاحكة :

ـ لقد أعجب بلوحاتك كل الإعجاب ، أما أنا فما أظن أنه قبلني على جهلي بالرسم إلا لأنني همزة الوصل بينك وبينه . وسنكون الفتاتين الوحيدتين في معهده ، فما انضم إلى صفوف تلاميذه بنات من قبل .

وتذكر أميرة يوم دخلت البيت الأثرى لأول مرة ، فقادتها إليه أزقة قذرة تختلف عن الصورة الجميلة التي رسمتها في ذهنها لموطن الفن ، فلما دخلت من بابه الخشبي العتيق ، أخذت بما رأته من جمال أثرى يتبدى في بناء شرقي يحيط به فناء واسع تتوسطه شجرة جميز عجوز ناءت أغصانها بفعل السنين ، فمالت تنشر الظلال الواسعة تحتها .

ووقفت في البهو معجبة ، وقد خيل إليها أن حياة المماليك تبعث فيها من جديد : فهذه « المشربية » الخارجة في بروز ، كانت مجلس ربّ البيت ، وتلك المصاطب الممتدة على جانبيها مقاعد حاشيته وأتباعه . تأملت الجدران المغطاة بالخزف الملون ، ثم ارتفعت أنظارها إلى السقف الخشبي المنقوش ، فإذا بصوت هادئ يقول من خلفها :

ـ ماذا تريدين ؟

تلفتت خلفها مسرعة ، فرأت شابًّا لا يكاد يتجاوز

الحادية والعشرين من عمره : طويل القامة ، عريض الأكتاف ، يتطلع إليها فى حياء صبغ وجهه الوسيم بحمرة خفيفة . قالت له :

ـ أريد مقابلة الأستاذ صلاح .

ـ إنه فى الدرس الآن ، ولكنى سوف أخبره بحضورك ، فمن أنت ؟

ـ أميرة الطالبة الجديدة .

ودخل الشاب حجرة يمين البهو ، فوقفت فى مكانها تنتظر عودته ، وقد تسارعت دقات قلبها كعهدها عند ما تقدم على جديد . ولكن وقفتها لم تطل ، إذ عاد الشاب بعد ثوان معدودات ، ودعاها إلى الدخول عابساً .

وكانت حجرة فسيحة رصت فى جانب منها تماثيل نصفية من الجص الأبيض ، وقف بينها الأستاذ ، وأمامه خمسة طلبة يختلسون النظرات إليها ، ورءوسهم تختفى وراء الحواجز الخشبية التى يجلسون خلفها .

قال الأستاذ فى غير تحية أو ترحيب :

ـ لماذا تأخرت عن درسك الأول ؟ لقد بدأنا منذ عشر دقائق على الأقل .

ولم تكن تتوقع مثل هذا الاستقبال ، فغلبها الارتباك ،

وسرت الحرارة فى وجهها ، وقالت خجلة :

ـ آسفة ، لم أكن أعرف الموعد بالضبط .

ـ ولكن زميلتك ، وهى مستجدة مثلك ، عرفت الموعد فجاءت فى الوقت المناسب .

وتحولت أنظارها إلى عائدة ، فرأتها تجلس وسط الطلبة ، وهى ترنو إلى أستاذها بعينيها الواسعتين ، وتصغى إلى تأنيبه أميره فى ذلك التواضع الذى تصطنعه أحياناً ليضاعف جمالها ويبرز محاسنها . قالت أميرة ثانية :

ـ آسفة !

أجاب الأستاذ وما زال مقطباً :

ـ اجلسى على هذا المقعد ، وإياك أن تتأخرى مرة أخرى .

وأشار بيده إلى مقعد شاغر بجوار عائدة ، فجلست فيه تصغى إلى ما يقوله أستاذها للطلبة ، وتتأمله فى ذات الوقت : رأته فى الأربعين من عمره متوسط القامة ، يميل إلى البدانة ، وتلتمع فى وجهه البيضاوى عينان فى حدة عينى الصقر ويقظتهما . أما شفتاه الرقيقتان ، وأنفه المستقيم ، فتجاورهما تجاعيد الصرامة والقوة . ولكن بالرغم من روح الفن الذى ينبعث من كل لمحة فيه ، كانت سماته ولفتاته ونبرات صوته

تنم على منبت كريم .

سمعته يقول :

ـ سنبدأ دروسنا برسم هذه الرءوس البيضاء ، فلا ترسموها اعتباطاً ، بل ادرسوا شخصية كل منها ، وتعمقوا فيها ، لتتضح لكم ميزات كل منها : فهذا الرأس مثلا لبطل رياضى عالمى ، فى سماته القوة البدنية ، وفى عينيه هدوء من يرعى الجسد دون الفكر !

وانتقلت نظرات أميرة إلى زملائها ، وبدأت بمن على يسارها ، وكانت تعرف عائدة فتخطتها إلى جارها : رأته قصير القامة ، قوى الجسم ، تكاد عضلات ذراعيه تبرز من كمىّ سترته الأنيقة . أما هيئته العامة فتذكرها بمن كانت تراهم مع أبيها من أثرياء الريف . وإلى جانبه كان يجلس شاب صغير القامة نحيفها ، أنفه الأذلف يناسب فمه الدقيق وعينيه المستديرتين ، ونظراته الحائرة توحى بأنه مخلوق مذعور يطارده عفريت . وكان الثالث يجلس إلى يمينها ، فالتفتت إليه التفاتة خفيفة ، فرأته مستدير الوجه ، باسم الثغر ، قصير القامة ممتلىء الجسم . وإلى يمينه جلس ذلك الشاب الوسيم الذى قابلها وقت دخولها المتهد ، واسترعى أنظارها منه ملابس لا توحى بثراء أو شبه ثراء ولكنها نظيفة

منظمة .

قال الأستاذ :

ـ أما هذا فوجه هوميروس شاعر اليونان القديم . ولكنك فى عالم آخر يا آنسة أميرة !

وارتعدت مثلما ارتعدت حينما فاجأها الشاب فى البهو ، وخفضت رأسها خجلة ، ولكنها لأمر ما لم تغضب لتأنيبه كما غضبت لاستقباله ، فارتسمت على فمها بسمة أزالت بعض حدته ، فاستطرد هادئاً :

ـ لو أصغيت إلى كلامى ، لأفدت منه كثيراً .

وعاد يستأنف شرحه قائلا :

ـ عاش هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وما زال إلى اليوم يسحر العالم بعبقريته ، فإن نظرتم إلى وجهه رأيتم تلك القوة المعنوية المتفجرة ، والحكمة الفلسفية العميقة تبرزها خطوط جبينه وأساريره .... ليبدأ كل منكم برسم الرأس المواجه له ، ولا تتعجلوا فى الرسم ، فسوف أحكم على مواهبكم به .

وأقبلت أميرة على ورقها ترسم رأس هوميروس ، ولكن ذهنها ظل موزعاً بين عملها ووجوه زملائها ، وذكرتها سماتهم بكتاب كانت قرأته فى عامها الماضى ، وفيه قسم المؤلف

الناس ثلاث فصائل : العصفور ، والحصان ، والفطيرة ، وقال إنه إذا استعصى وضع أحد الناس فى قسم من هذه الأقسام ، فلأنه هجين بين فصيلتين أو أكثر !!

وسار قلمها على الورق سهلا يرسم خطوط حكمة هوميروس وعبقريته ، وإن شغل تفكيرها بتطبيق التقسيم على زملائها : فالشاب القوى الأنيق من فصيلة الحصان ، ففيه من مظاهر البهيم أكثر مما فيه من الإنسانية المفكرة . والنحيف المذعور يناسب العصفور فى ذكائه وحدة نشاطه . والسمين الطيب فطيرة واضحة فيها من الدسم والخير قسط وافر . أما الوسيم ، فإلى أى فصيلة ينتمى ؟ وظلت تستعرض الفصائل مرة بعد أخرى ، فلما عجزت عن إلحاقه بإحداها ، قنعت بأنه هجين بين العصفور والحصان : فوجهه الجميل فى حسن الطيور البرية ، وجسمه القوى فى تناسق الحصان العربى الأصيل .

وتركهم أستاذهم يعملون ، وانصرف من الحجرة لشئونه الأخرى ، فلما مضت ساعتان عاد ينبئهم بانتهاء الدرس ، ويلقى نظرة على رسومهم . ودار بالجالسين معدداً ملاحظاته ونصائحه ، فإذا حل دور أميرة ، ووقفت أمام رسمها ، لم يقو على إخفاء إعجابه بمهارتها فقال :

— إنك موهوبة يا آنسة ، وسوف تصبحين رسامة مذكورة . هذا إذا لم تتأخرى عن دروسك ، ولم تشغلى ذهنك بالنظر إلى زملائك ، والإمعان فى وجوههم !

وخجلت لقوله ، وفهمت أنه كان يراقبها خفية ، وبذلك عرف من حركاتها الصامتة ما كان يختلج فى ذهنها . قال مستطرداً :

— إننى أعرف كل شىء ، وبنظرة واحدة لا تخفى علىّ خافية من مكنون السرائر !

وضحكت أميرة ، فتبسم هو الآخر ، وقال :

— إن شئت أن أثبت لك مقدرتى هذه ، فانتظرى حتى أقدم إليك زملاءك المستجدين ، وستؤمنين بعد معرفتهم بصدق فراستى .

ونادى الزملاء بصوته الجهورى ، فلبوا نداءه مسرعين ، وقال لهم :

— أود أن أقدمكم إلى زميلتكم الموهوبة : هذا — وأشار إلى من شبهته بالحصان — زكى وهو ابن ذوات ينام معظم يومه ، ويأتينا بالعشى لا للدراسة الجدية ، بل لقطع الوقت .... وإبراهيم — يقصد العصفور — ماهر اليد ، وافر الاستعداد ، سوف تتحدث البلاد باسمه عما قريب ... وعطية — أى

الفطيرة – موهوب ولكنه يقبل على الرسم متراخياً إقباله على الحياة ... ومحمود – الشاب الوسيم – موزع بين دراسته الجامعية وهوايته الفنية ، وسيظل هكذا موزعاً بين الناحيتين لا يتقن هذه ولا تلك .... أما صديقتك عائدة فأنت تعرفينها أكثر منى ، ولكنى أضيف إلى معارفك أنها زهرة برية تفتحت لتستمتع بالحياة ، وما الرسم إلا ذريعة تنشد بها السعادة !!

وأثارت دعابة الأستاذ روح المرح فيهم ، فضحكوا ، وزالت الكلفة بين الفتاتين والفتيان الأربعة ، حتى خيل إليهم أنهم يعرفون بعضهم بعضاً منذ أمد بعيد . وازدادت المعرفة على مر الأيام ، وتكشفت الأخلاق والشخصيات ، فآمنت أميرة بصدق فراسة أستاذها ، وتحقق لها وصفه لكل زميل من زملائها .

وكانت أميرة تعرف أنها مستأثرة بنصيب موفور من عطف أستاذها ورعايته ، ولكنها لم تكن واثقة من أنها ملكت عليه قلبه حتى ذلك اليوم الذى انتهت فيه الدروس النظرية ، وبدأت العملية ، فطلب إليهم أن يخرجوا إلى أحضان الطبيعة ، وأن يختاروا منها موضوعات لأول رسومهم الزيتية .

وجلست أميرة فى شرفة بيتها حائرة ، لا تدرى ماذا تختار ، ليكون موضوع لوحتها ، ثم سارت ريشتها على النسيج قلقة ، تلون شيئاً هنا ، وشيئاً هناك ، فإذا ما انتهت من رسمها كانت صورة الغسق الذى تكرهه .

ولما عرضتها على الفنان ، أنعم فيها نظره ، فإذا هى لوحة رمادية فى جانب منها فتاة تتأمل العتمة خائفة ، وتقبض على حافة الشرفة بيد متقلصة . وامامها قد امتدت حديقة واسعة لفها الغسق ، فبدت رءوس الأشجار فيها أشباحاً ترقب الفتاة فى عبوس وغضب !

وكانت الصورة على بساطتها قطعة من الفن الرفيع : فى هدوء ظلالها معانى عميقة تنطق بها الألوان القاتمة ، وفى جمال تعابيرها روح حزين يشيع فى جوها ، ويبعث فى نفس ناظرها ذلك التشاؤم الذى يصاحب أميرة عند الغسق ! !

ومنذ أن رسمت تلك اللوحة غدت فى حياة أستاذها كل شيء : يتوجه إليها بالحديث خلال الدرس ، وكأنه لا يرى من التلاميذ غيرها ؛ ويقود جهودها بإرشادات سخية يبخل ببعضها على زملائها . وأكثر من هذا وذاك أنه كان يتبعها فى روحاتها وغدواتها بنظرات لا تخطىء

المرأة بغريزتها تفهم معانيها ، وتلمس أهدافها !!

وعند ما تجتمع الصديقات الثلاث فى منزل أميرة ، تضحك عائدة وتقول لخديجة :

— إن العجوز دلهه حبها !

فتقول أميرة عاتبة :

— أنت — لا ريب — مجنونه .

ولكن بينها وبين نفسها كانت تعرف أن عائدة على حق ، وأن أستاذها الصارم قد غدا عجينة لينة ، لو أرادت لشكلتها بهذا الشكل أو ذاك .

٤

أشرف الليل من عليائه مسبلا على الأرض كسوة داكنة اختفت الكائنات بين طياتها مرحبة بخلاصها من الغسق ، فذابت الصور فى أحضان ضيفها الجديد ، مأخوذة بوقاره، مستمتعة بسلامه ، مطمئنة بما يبعثه فيها من معانى عظمته وسحر غموضه .

وأطبقت جحافل الظلام على الحديقة تلتهم — نهمة — أشباحها الخابية ، فلا تبقى منها إلا ظلالا خفيفة طوتها حلة أبنوسية يتغنى صمتها فى الفضاء الواسع مسبحاً بجلال الهدوء والدعة .

وخافت نسمات الليل أن يسلبها الصمت مرحها ، فأحاطت بالأشجار تداعبها بهمسات متلاحقة ، عزفت لها الأوراق حفيفاً موسيقياً مشجياً ، فانتشت الأغصان بأنغامه الحلوة ، وتمايلت متلامسة متلائمة .

وأشفق بالمحزونين نجم طيب استبطأ أخواته الكسالى ، فسبقها إلى السماء وضّاءً لامعاً ، كأنه يهيب بمرتقبيه أن

يصدقوا فى شكاياتهم ، فيسردوا عليه قصص أوجاعهم وأشواقهم .

وكانت أميرة تعرف النجم منذ رأته أول مرة يطل عليها من فوق الشجرة الكبيرة ، وفى عينه اللامعة سلام أغراها بانتظاره متلهفة . وقامت بين أميرة والنجم صداقة قوية انقلبت إلى محبة بالغة دفعتها إلى الثقة به صديقاً صدوقاً لا يصح أن تخفى عليه أى شأن من شئونها . والعجيب أنه لم يكن يخيب أملها فيه مهما اختلفت عواطفها وتباينت أحاسيسها : فكلما استبد بها الشجن ، أو غلبها الفرح ، رفعت وجهها إليه ، نتراه فى مكانه مشاركاً فاهماً مقدراً لاعتمالات القلب هادئة كانت أم ثائرة .

وكان عهدها به رمز السلام والأمل والرضى ، أما فى هذه الليلة ، فقد رأته — وهى تستعرض فى شرفتها أحداث ماضيها — يعتلى مكانه فوق الشجرة الكبيرة قاتماً متذمراً غاضباً : فى نوره البراق حيرة ، وفى التماعه الوضاء ثورة ، وفى تألقه المتسارع احتياج إلى العزاء والتسلية . أتراه مثلها أراد أن ينجح فأخفق ، أو هى صورة نفسها تنعكس على صفحته ، لتضاعف آلامها وأشجانها ؟ !

وتنهدت أميرة ، وقد ساءها أن يخونها صديقها ، فيشترك

هو وعدوها فى معايرتها بغرور كاذب جلب لها من الأحزان ما كانت بمنجاة منه . ولكن من عدوها ؟ إنه قلبها الذى خذلها وهى تنشده العون ، فهل كانت تستطيع أن تتصرف غير تصرفها ، وعدوها وخاذلها يرقد بين جوانحها ؟

وإنها لتعرف اليوم أن محنتها أتت من تعارض رغبات قلبها مع دستور غرورها ، فكلاهما كان يعمل لحسابه الخاص ، وهى نهب بينهما ، إذا مالت نحو أحدهما ، هب الآخر ثائراً مؤنباً فتضطرب بين هذا وذاك ، مستسلمة لعوامل تتنازعها ، ولا تدرى لأيها تدع السيطرة عليها .

ولقد تعلمت فيما مضى أن العواطف مظهر الضعف ، وأن التمسك بالكبرياء مجد وعزة ، فمارست تعاليمها فى أمور تافهة ، ليغرر بها التوفيق ، فتظن أن متاعب الحياة متشابهة متماثلة . ولكنها تعرف الآن أن المتاعب مختلفة متباينة : بعضها هيّن ليّن يصيب المجدودين فيقاومون ، وبعضها الآخر ساحق ماحق ينزل بالمنكوبين فيستسلمون ، فمن التزمت أن تتطلب من الطائفتين أن تسلكا نهجاً واحداً والفرق بينهما شاسع .

وإذا كانت تلوم نفسها ، فعلى أنها ظلمت والدها بأن استنكرت ضعفه فى أواخر أيامه ، حتى بلغ بها الاستنكار

أن لازمها ظل هزيمته ، موعزاً إليها بأن تتعلق بأهداب القوة ، لتمحو فى شخصها ما ساءها من ذكراه ، وتستكمل فى نفسها ما اعتقدته فيه نقصاً قبل وفاته .

ولا شك أنها تراه الآن فى ضوء جديد : رجلا نبيلا قوياً ، أصابه القدر بعلة قاسية كشفت الحجب عن عينيه ، فرأى ما كان يجب ألا يراه من نهاية تقترب خطوة خطوة فى غير تخف أو مواربة ، معلنة بصريح العبارة موعدها المحتوم ، وعلى الجهل به تقوم فلسفة الدنيا كلها . وإذا كان قد غلب على أمره ، ففى معركة الموت الطاحنة ، وللمغلوب فيها حججه وأعذاره ؛ أما هى فلا حجة لها ولا عذر ، وقد هزمت فى أول جولة تافهة ، وخرجت منها قبل الأوان منهوكة مستضعفة .

وربما كان التوفيق من نصيبها لو لم تدخل معهد الرسم ، وتتلمذ لأستاذها ، إذ أن المعهد جلب عليها الشقاء ، وفيه قامت المعركة بين قلبها وغرورها ، ليطول العراك ويشتد ، ثم يتخاذل أحدهما ، ويثبت ثانيهما ، فتخرج بنصر خاسر لا يرضى عواطفها ولا يشبع غرورها .

وأنها لا تذكر كيف بدأت المعركة ، وعذرها فى ذلك أن طلائعها لم تهب هبوباً ، أو تصخب صخباً ، بل

انسابت هادئة متئدة ، وتسللت حريصة متكتمة ، حتى إذا ما استفحل أمرها ، وتأججت نيرانها ، رأتها أميرة هاجمة فى غير مقدمات ، فدفعها الزعج إلى التخبط فى درء شرها .

وسواء أجاءت تلك الطلائع مقنعة كما زعمت ، أم جاءت سافرة كما هو الواقع ، فما لا جدال فيه أنها أخطأت كل الخطأ يوم أحست بسلطانها على أستاذها ، فلو لم يسيطر عليها الغرور ، وتفسح له صدرها ، ما رفعت رأسها فخورة مزهوة باستيلائها على قلب الفنان الثرى الصارم دون جهد بذلته من ناحيتها ، أو رغبة فى بسط سيطرتها وسلطانها .

وتعذبها ذكرى الغرور ، وما جلبه عليها ، ولكنها تعرف أنها استمرأت إذ ذاك طعمه ، وارتاحت لمعانيه الناطقة ببلوغها ما كانت تنشده فى صغرها من سحر نسوى يخضع الأقوياء لها . ثم أنها كانت أقل من عائدة جمالا — إذ احتكم الجمال إلى المقاييس الموضوعة — فأسكرها خمر النصر أن رأت الجمال يتضاءل أمام فتنة لا تعرف من أين تنبعث ، ولكنها تلمس قوتها وفعلها .

وكان يحلو لها أحياناً أن تسأل عن مكمن فتنتها ،

فيجيبها عقلها أنها موهبتها الممتازة ، ولكن تلك الاجابة كانت تغضبها أشد الغضب ، فهى امرأة قبل كل اعتبار ، والموهبة فى حياة المرأة الناضجة تراب رخيص إذا قورنت بتبر الأنوثة الثمين . فلا عجب أن تنكر على العقل رأيه ، كارهة أن تكون ثروتها النسوية مقصورة على موهبتها ، وهو أملاق لا ترتضيه ، ونفسها تحدثها بأن فى مقدرتها أن تكون ساحرة جذابة من غير تفوق فى الفن ، أو أقل دراية به .

وكثيراً ما كان يقنعها هذا الزعم ، فتطرب وترضى ، وقليلا ما كان يبعث فى نفسها القلق ، فتخاف أن يكون مجاملا ، واذ ذاك تهرع إلى المرآة تستطلعها رأيها ، وتدقق النظر فيها باحثة متفقدة ، وعندئذترى صورة ممتعة فيها زهرة بشرية يانعة قد ينقصها تهذيب الورود التى يغرسها الإنسان فى حديقته بعد طول استعراض وانتقاء ، ولكنها عامرة بما فى الزهور البرية من سحر أخاذ ، وعطر نفاذ ، وثورة على النظم الموضوعة .

وهنا كان ينتفخ صدرها زهواً وخيلاء ، حتى لتظل لحظات متصلة تبسم للمرآة راضية ، أو تقطب مداعبة .... تتأملها تارة من قريب ، وأخرى من بعيد .... وتميل برأسها ذات اليمين وذات الشمال فى عجب ودلال تحكيهما صورتها

الماثلة أمامها على صفحة المرآة ، ناطقة بذلك الرضا الذى يلتمع فى عينيها النجلاوتين .

وما زالت تذكر فى وضوح كيف زين لها الغرور فى ذلك العهد أن تعبث بعض العبث ، طمعاً فى اختبار حقيقة شعور أستاذها نحوها ، فكانت مثلا تبسم له على حين غرة ، مودعة فى ابتسامتها كل ما تعرفه من صناعة الدلال والإغراء . وخيل إليها أول ما فعلت ذلك أنها أثارت غضبه وحفيظته ، إذ احمر وجهه فى شىء من التردد الدهش ، ثم تبدى عليه النفور ، وأشاح بوجهه عنها مقطباً .

وظل معرضاً عنها فى دروس ذلك المساء غير أن جفاءه لم يردها أو يصدمها ، فقد لمست فيه الخوف والتمنع ، وكلاهما لا يكون إلا عند الإحساس بالخطر . والإحساس بالخطر دليل على استعداد ذهن صاحبه للاستسلام ، وتلك نتيجة إن لم تكن قد فهمتها إذ ذاك بهذه الصورة الواضحة ، فإن نفسها اهتدت إليها بوحى من غريزتها النسوية المرهفة .

وهكذا لم تؤيسها البداية الخشنة ، فأعادت البسمات كلما سنحت لها فرصة ، حتى صار يلاحقها بنظرات جديدة

تنبعث من عينين فياضتين بالعاطفة . وسعدت بنصرها عامين متتاليين ، كانت فيهما موالية متوددة : إذا رأته يتلكأ عند باب حجرة الدرس فهمت مقصده ، واقتربت فى سخاء ، ليدعوها إلى عشاء يقيمه فى المساء بعد انصراف الطلبة ، أو نزهة خلوية فى سيارته الأنيقة ، أو سهرة ممتعة بداره الأثرية الجميلة .

وتشهد أنها استمتعت فى صحبته بكل ما يتحلى به رجل مثالى ، فكلمات الحب لم ترد على لسانه مرة واحدة ، ولمسات التقرب الرخيصة لم تطاردها أو تتعرض لها ، بل كان كريماً فى ترفع ، رقيقاً فى تمنع ، عطوفاً يكبت عاطفته ، ويقنع من رفيقته بمظاهر الصداقة البريئة . وفوق ذلك كان يمنحها فرصاً لم تتح لها من قبل ، فعرفت فى بيته خيرة أفراد الطبقة الراقية ، ومنهم رعاة الفن المخلصون ، ومنهم المدعون المتعجرفون ، ولكن أستاذها كان بينهم مهيباً ، يوقره رجالهم ، ويجله نساؤهم ، ويدين له المخلصون والمدعون بواجب التجلة والاحترام .

وكما أجمعوا على توقير أستاذها وتبجيله ، أبدى رجالهم ما أذكى نيران الغرور فى قلبها ، فكانوا يتوددون إليها ، ويتسابقون إلى اكتساب قلبها ، وانتزاعها من معلمها ،

فيرد توددهم وتقربهم تباعدها وغطرستها ، مكتفية بما كان يرتسم على وجوههم من علامات الغيظ والخيبة .

وإلى هذا الحد ظلت علاقتها به هادئة ، ثم صحبها ذات يوم فى نزهة خلوية ، فلما ابتعدت بهما السيارة عن ضجيج المدينة ، أوقفها فى بقعة هادئة ، وكاشفها بحبه العميق ، ورجاها أن تربط حياتها بحياته . وكانت مفاجأة لم تكن متأهبة لها ، فعلى الرغم من اعتزازها بمكانتها من قلبه لم تكن مسألة الزواج تطرأ على ذهنها قط ، إذ أنها لم تقدر للعلاقة غير ظاهرها التافه شأنها فى ذلك شأن كل فتاة تمر بعلاقات عابرة .

وجعلت تصغى إليه دهشة ، وهو يروى لها قصة حبه آلامه وعذابه ، مرتجفاً خائفاً مستعطفاً كأن مصيره كله وقف على كلمة منها ، فخيل إليها أن المتحدث غير الرجل الذى كانت تعرفه وترتاح إليه : رجل ككل الرجال إن لم يقل عن كثرتهم فى سلوك صبيانى يوقفه منها موقف التلميذ العارف بضعفه وقوتها .

واختلطت الأحاسيس فى نفسها اختلاطاً لم تعد تعرف معه أكانت تشفق عليه أم تحتقره ، ولكن مما لا جدال فيه أنها رأته ينزل فجأة عن عرشه المنيع ، ويذكرها هذا

الموقف بموقف صديقات طفولتها منها ، وما كان يبدو من ضعفهن المثير لشيطان تكبرها واستبدادها .

ومع طغيان عواطفه فى تلك اللحظة ، استطاع أن يقرأ ما يجول فى فكرها ، فاستعاد سيطرته على نفسه ، وقال وهو يتطلع إليها بنظرة فاحصة :

— آسف !

— وعلام الأسف ؟

— على أننى أخطأت فى اختيار الوقت المناسب .

— ومتى يكون الوقت المناسب فى اعتقادك ؟

— لست أدرى ، فربما كنت مخطئاً منذ بدء الأمر !

— ربما ! !

— إذاً ، فلن أعيد الكرة ، وسأقنع بالانتظار .

— وإلام تنتظر ؟

— إلى أن يستقر رأيك على أمر ، فنفسى تحدثنى بأن ستكون لنا معا فى ميدان الحياة جولة .

— ولكنى لا أحب أن أتقيد .

— لن يكون عليك التزامات أو واجبات ، فأنت حرة فى حياتك تفعلين بها ماتشائين ، والذى أريده منك الآن أن تعلمى أننى فى الانتظار مهما طال الزمن ، فإذا رضيت

ى يوماً ، فتعالى وقولى إنك على استعداد .

— وإلى هذا اليوم ؟

— لن يكون بيننا أكثر مما كان يوم جئت إلى المعهد تطلبين العلم : علاقة الأستاذ بتلميذته الموهوبة فقط ، فلا دعوات ولا مؤثرات .

وعادا فى السيارة صامتين ، لا ينطقان بكلمة ، ولا يتبادلان حديثاً ، كأن البحار تفصلهما وهما على مقعد واحد .

وتعترف أميرة بأن نفسيتها تغيرت منذ ذلك اليوم ، فعاودها قلقها البغيض القديم ، وتكشفت الحياة من حولها عن فراغ واسع لا بداية له ولا نهاية : فراغ تسبح فيه دون وجهة تقصدها ، أو هدف ترمى إلى بلوغه . واستبد بها الملل ؛ وأحست أن شيئاً لا تعرفه ينقصها ، وإن كان يعذبها فقدانه ، كما حدث يوم مات والدها محطماً الصورة الرائعة التى رسمتها له فى طفولتها وشبابها . وكم سألت نفسها عما تنشده ، فكان الجواب يعصيها ، فيتضاعف تخبطها وتزداد حيرتها . أتراها تتعذب لما حدث بينها وبين أستاذها ؟ ولكن لماذا يعذبها ذلك ، وخليق بها أن تقر عينا بفرصة زواج تواتيها ؟

وتحرك شيطان الملل فيها يغريها بعقاب من جلب عليها القلق بعد طول هدوء ، فأعرضت عن أستاذها دون سبب ، وتجنبت الحديث معه متعمدة ، وكان يلذ لها أن تراه واجماً كاسفاً ، وهى تقبل على زملائها لاهية عنه : تبتسم لهذا ، وتحيي ذاك ، وتكاد تدعوهم بسلوكها إلى حرق بخور الحب تحت قدميها !

واستجاب الزملاء لدعوتها الصامتة ، فالتفوا حولها يتسابقون إلى خطب ودها فى لهفة ، كأنهم كانوا يترقبون الفرصة منذ أمد بعيد ، غير متحرجين أو متحفظين فى تقربهم وتعاطفهم ، اللهم إلا محمود ذلك الشاب الوسيم ، فإنه اختار أن يرقب المعركة من بعيد ، وعائدة بجواره ترقبة فى ترقبه ، وتكاد تلتهمه بعينيها الواسعتين . وكان واضحاً أن عائدة مشغوفة بهذا الفتى ، وأن الفتى راض ولو عن بعض شغفها . وإلا فلماذا ظل مبتعداً دون غيره ، لا يستجيب لدلال أميرة ، ولا يعترف صراحة بفتنتها وجاذبيتها ؟ أتراها لا تروق عينيه ، أم أن عائدة بسطت عليه سيطرتها وسلطانها بما يبطل سحر غيرها ، ويحطم كل إغراء دون إغرائها ؟

ولو أعرض محمود فى غير هذا الوقت ، ما اهتزت أميرة لأعراضه ، أو راعها نفوره وابتعاده ، ولكنها كانت

حائرة ملولا تبحث عن التسلية والمغامرة عسى أن تجد فيهما مهرباً من نفسها المتعطشة إلى الراحة والاستقرار . ولم تكن التسلية والمغامرة لتتحققا فى صيد سهل يسير مثل زملائها الذين أقبلوا عليها ، ولم تبذل جهداً مذكوراً يجعل لاقبالهم لذة محسوسة ، ولذلك تحول اهتمامها نحوه ، فلما رأته مصراً على ابتعاده ، أغضبها كل الغضب أن يستعصى عليها ترويض فتى لا أهمية له ولا مكانة . وبلغ من غضبها أن اعتبرت سلوكه إهانة شخصية توجب إذلاله بقدر ما أساء إلى أنوثتها .

وكان من الجائز أن تزهد فى اجتذاب زميلها الوسيم ، لولا ما ظهر من جهل عائدة بطبيعة صديقتها ، ومن طيشها فى مواجهة الموقف : إذ ما كادت تلحظ تغير اتجاه أميرة ، وتحول اهتمامها نحو محمود ، حتى أصابها دوار معنوى دفعها إلى التخبط فى تصرفاتها ، فمرة كانت تقبل على أميرة متوددة باسمة ، كما أنها لا تعرف شيئاً مما يدور حولها ، ومرة أخرى تقطب وتغضب ، وتعمد إلى القطيعة أياماً متوالية تتسقط فى خلالها فرص التلميح الموجع والتعريض الجارح .

وبعث سلوك عائدة روح العناد فى أميرة ، فرأت أنها

ترغب فى تأديبها ، لا لمحو إهانة الفتى فحسب ، بل لتثبت للطائشة أنها قادرة أن تنتزعه منها ، ثم ترده إليها وقتما تشاء ، لأن اهتمامها به لم يكن لشخصه بقدر ما كان للظروف والملابسات التى تكاتفت على إثارة شيطان تكبرها .

ولم تكد أميرة تتخذ قراراً حاسما فى هذا الشأن حتى جاءت عائدة زائرة ذات صباح بعد أسابيع من التوتر والنفور ، فعاتبتها أميرة على قطيعتها دون سبب ، فقالت عائدة فى برود :

– أترغبين مخلصة أن أزورك ؟ !

– ليس فى ذلك من شك .

– ألا نتقابل فى المعهد ، وفى ذلك الكفاية ؟ !

– وهل نتقابل إلا لنشتغل ؟

وابتسمت عائدة مغيظة ، وقالت :

– بل أنت تشغلين نفسك بأكثر من ناحية ! !

– وكيف ذلك ؟

– إنك تعطين زملاءك من الأهمية فوق ما تعطين الرسم !

– هم الذين يلتفون حولى ، وأنا فى غنى عنهم جميعاً .

– ولكنك لست فى غنى عن واحد منهم على الأقل !

ـ وماذا يحول بيني وبينه ؟

ـ زهده فيك ورغبته عنك !

ـ ليس فيهم إلا من يتوق إلى معرفتي وصداقتي .

ـ تلك مكابرة . اعترفي بهزيمتك .

واحمر وجه أميرة غضباً وقالت حانقة :

ـ ما هُزمت قط ...

ـ كان ذلك فيما مضى أيام الدراسة والسذاجة ، أما الآن فالبوادر غير مطمئنة ! !

ـ أهو تحدٍّ ؟

ـ ولم لا ! !

ـ إني لأتقبله راضية .

قالت عائدة وقد نهضت للانصراف .

ـ حاولي إذا استطعت ! !

وجلست أميرة وحدها ساهمة تستعيد الماضي ، وما فيه من صور لمدرستها الثانوية أيام كانت عائدة زعيمة متفوقة ، فانتزعت منها مكانتها وزعامتها ، وأرغمتها أن تكون كغيرها من التابعات المخلصات . أتراها تنشد جولة أخرى ، أم هي الأحقاد القديمة ما زالت حية في نفسها ؟ ومن لها بخديجة الآن تمدها برأيها الحكيم ؟ وكيف السبيل إلى

الوصول إليها وقد عُينت بعد تخرجها فى مدرسة بالصعيد ؟

وتاقت أميرة إلى وجود خديجة ، فتلك الصديقة لم تكن تمالئها أو تداهنها إذا اختلف الرأى بينهما ، وكان وجودها بجانبها ينشر عليها ظلا من الهدوء والتؤدة يعاونها على التفكير فى كل خطوة تخطوها . وخيل إليها أن خديجة تجلس معها ، وتهز رأسها فى حكمة وتقول :

— كم مرة حذّرتُك فيها هذه الفتاة ، فضربت بتحذيرى عرض الحائط ؟ ولكن لا تغضبى منها ، فمسلكها شرعى ، بل أكثر شرعية من مسلكك . إنها تدافع عن قلبها ، أما أنت فتدافعين عن غرورك . وإذا تدخلت القلوب بين النساء ، تلاشت الصداقة ودب الخصام والعداء . كل شىء يهون فى حياة المرأة إلا الرجل ، فهو محور صراعها وجهادها ، وهو مبعث سعادتها أو مجلبة شقائها .

وضربت أميرة الأرض بقدمها وقالت :

— بل سوف أؤدبها بدرس جديد ينشط ذاكرتها الخاملة ! !

وواتتها الفرصة سريعاً وقتما رسمت لوحة جديدة التف الزملاء حولها يمتدحون جمالها وإتقانها ، فقال لها محمود فى خجل وحياء ، وكان ذلك أول مرة يبادلها فيها الحديث منذ أمد طويل . .

ـ لو كنتُ في براعتك ما بقيت فى الجامعة يوماً واحداً .

ـ أنت موهوب ، وفى مقدورك أن تكون فناناً مذكور الشأن .

ـ أحقٌ ما تقولين ؟

وكادت ضحكة ساخرة تفلت من بين شفتيها ، لولا أن كبتتها فى الوقت المناسب ، فقد كانت تعرف أن ابتعاده عن الرسم أكبر جميل يؤديه للفن ، ولكنها كانت تعرف أيضاً أن الثناء يغر الرجال أضعاف ما يغر النساء . قالت :

ـ عيبك أنك موزع بين دراستين مختلفتين مما يعوقك عن التفرغ لإحداهما .

ـ ولكن الفن لن يطعمنى ، وعلىّ أن أتعلم لأكتسب قوتى .

وآلمها قوله فاستطردت متضاحكة :

ـ ثم إنك تخلط الألوان فى تصنع ، ولو سرت مع الطبيعة فى امتزاج ظلالها وأضوائها ....

وسارت نحو لوحته ، فسار بجانبها يصغى إلى ملاحظاتها ، حتى إذا انتهت رأته يتأمل وجهها غير منتبه لكلمة من حديثها الطويل . قال فى جرأة لم تكن تتوقعها منه :

ـ أشكرك أن ابتعدتِ بنا عن الآخرين ، لأخبرك

بما كنت أود أن أصارحك به منذ زمن طويل ، وهو أنك ألطف فتاة قابلتها فى حياتى ، وأظننى اليوم أسعد مخلوق فى هذه الدنيا .

واستبدت بها الدهشة ، فقالت فى صوت خفيض :

— وما الذى كان يمنعك عن هذا القول ؟

— حيائى الطبعى ، ونفورى من الاشتباك فى معارك خاسرة !

— لست أفهم ما ترمى إليه ،

— إننى أعمل بالحكمة القائلة : ويل للنوتى إذا نافسه الرُّبانىّ .

واهتاجت الدماء فى وجهها لمّا فهمت مقصده ، وعرفت ما كان خافياً عليها من أنه كان يتوق إلى صداقتها ، ولكنه كان يخاف أستاذه ، ويقدر علاقته الظاهرة بها . قالت متدللة :

— سوف يسوء كلامك هذا صديقة لك !

— ليس بينى وبينها أكثر من صلة الزميل بزميلته .

— ألا تعجبك ؟ !

فارتسم الضيق على وجهه وقال حازماً :

— تعجبنى كل الإعجاب ، وهى أكثر من رأيت طيبة

وجمالا ، ولكن ما حياتى وذوقى سقيم ؟ !

وأدهشتها قحته ، وأغضبها أن يقوى غرّ أبله مثله على مجابهتها بهذا الرأى الصريح . ولازمها غضبها بقية المساء ، فلما ذهبت إلى بيتها جعلت تستعيد كلماته باحثة عن حقيقة معانيها ، حتى إذا ما أعياها البحث ، ولم تصل إلى نتيجة ، ندمت على سابق اهتمامها به ، وعزمت أن تبتعد عنه ، مقنعة نفسها بأنه أقل من أن يستحق معرفتها وصداقتها .

وفى مساء اليوم التالى رأته فى المعهد يحوم حولها ، متظاهراً بالنظر إلى عملها ، فأغضت عنه وكأنها لا تراه ، فقال لها فى حياء وندم :

– أما زلت غاضبة علىّ ؟

– وهل يهمك غضبى ؟

– نعم يهمنى ، فكونى واسعة الصدر .

وعاودتها الرغبة فى معرفة حقيقة رأيه فيها ، فقالت :

– ماذا كنت تقصد بكلام أمس ؟

– ليس هنا مجال الحديث ، فدعينا نخرج بعد الدرس للنزهة ، وهناك أسمعك كل ما تريدين .

وترددت لحظة ، وقد شعرت أن العلاقة تتطور سريعاً ثم قالت :

ـ إذا قبلتُ ، فهل تعدُنى أن تقول الحق ؟

ـ الحق وكل الحق ولا كلمة غير الحق !

وتقابلا خارج المعهد ، ورافقها إلى بقعة هادئة ليسيرا فيها على الأقدام جنباً إلى جنب ، فشغل ذهنها بالمقارنة بين هذه النزهة الشعبية ، وبين دعوات أستاذها وسيارته الأنيقة . وتساءلت عما عسى أن يقوله الفنان لو علم أنها تتسكع فى الطرقات مع شاب تافه تكاد ثيابه العتيقة تصرخ فى طلب الرحمة .

وتلفتت وراءها خشية أن يكون أحد على مقربة منهما ، فيشهد نزهتها المهينة ، ولكن الطريق كان خالياً إلا من أشباح تسترت بالظلام طمعاً فى خلوة مسروقة . ومع ذلك لم تقو على مغالبة شعورها بالخجل والندم أن انساقت وراء رغبتها فى الانتقام إلى هذا الحد الذى لا يليق بمثلها . واجبها الآن أن تتراجع مسرعة ، ويكفيها أن راضته ، ووثقت بتفوقها على عائدة . ولكن لا . . . إن الفتاة فى حاجة إلى درس طويل يوقظ ذاكرتها الراقدة ، ويعلمها ألا تغالى فى تقدير مكانتها وسحرها .

وتعددت النزهات بعد ذلك ، وفيها كان الفتى يستأثر بالحديث ، لا عن حياته وآماله وأطماعه ، ولا عن حبه

وهيامه وأوجاعه ، بل عنها هى : عن قوتها الجارفة التى بهرته يوم رآها أول مرة تسأله فى بهو المعهد عن الأستاذ ، وكيف أنه لمس فيها روحاً فريداً يختلف عما اعتاده فى غيرها من الفتيات ، فجعل يرقبها خفية ، فيزداد إيمانه يوماً بعد يوم بأنها محنكة مجربة . ومصداق هذا الهدوء الحذر فى نظراتها ، والثبات المتحفظ فى لفتاتها ، والأعراض المجتذب فى معاملاتها ، ثم الرأس المرفوع فى ثقة مبعثها التعمق فى مختلف شئون الحياة وعديد ألوانها .

وكانت تعرف بينها وبين نفسها أنها قليلة الحنكة والتجربة ، ولكنها استعذبت أن تسمع هذا الكلام ، وما أحبت أن تصحح خطأ يتسق كل الاتساق مع ما تتوق أن تكون عليه من قوة ترضى غرورها .

وما كان يغيظها فى فتاها الجديد سوى عوده الدائب إلى ذكر أستاذها ، وتحايله المقنع ليقف على مدى صلتها به ، كأنه غير مطمئن لصداقة بريئة المظهر ، شاكٌ فى حقائق أعمق يحتمل أن تكون خافية عليه . ولم يغب عنها سعيه الدائب أو تحايله المقنع وإنما كان يلذ لها أن تتجاهل وسيلة لتعذيبه ، وأن تجيب عن أسئلته فى اقتضاب غامض يحتمل معانى أكثر مما فى مدلولها اللفظى ، ويتراقص قلبها طرباً وهى

ترى أثر كلماتها على وجهه الساذج غماً وحزناً وكمداً !

وإذا برحت به الانفعالات ، توجع له قلبها ، وتمنت لو قُطع لسانها ، ولكنها لا تلبث أن تستعذب عذابه ، فتمعن فى جموحها ، مفتنة فى ابتكار ألوان جديدة تضاعف بها مذلته وهوانه : فهى تارة تحدثه عن المعجبين بها من أصدقاء أستاذها ، مفاخرة مزهوة بترديد ما كانوا يهمسون به فى أذنها . وتارة أخرى تشير إشارات عابرة مقصودة إلى بيتها الكبير ومالها الوفير ، وما تشترطه من توافر ذلك فى زوجها المأمول . وقد تختار الصمت ، لتستمع إلى أحاديثه ساخرة هازئة . أو لا تفعل هذا ولا ذاك ، مؤثرة أن تنحصر قسوتها فى جفوته دون سبب أو تفسير .

وقبيل انتهاء العام الدراسى تغير شعورها الباطن بالرغم من تظاهرها وقسوتها ، فلم تعد تزدرى النزهة الشعبية ، بل تترقبها مشتاقة ، وتكره أن تفسدها بتعذيب الفتى وإذلاله ، ولكنها كانت تعذبه بالرغم من ذلك ، ثم تظل طوال لياليها التالية ضيقة الصدر ، كدرة المزاج ، تلعن نفسها ولسانها وخشونتها . وطغى طيفه على غيره من الأطياف الأخرى ، فلم تعد ترى فى تأملاتها وأحلامها وآمالها وجهاً يختلف عن وجهه .

وسارا إلى البقعة الهادئة المعهودة تسودها روح أخرى ليس فيها من مظاهر التلاطف والتعاطف لمحة واحدة ، قالت :

ـ أحب أن أعرف معنى مسلكك الأخير .

ـ ولمَ هذه اللهجة الآمرة ، أليس فى وسعك أن تكونى أرق أسلوباً من ذلك ؟

ـ أننى أسألك فلا تهرب من الجواب .

ـ إذاً فاعلمى أننى كنت غراً ساذجاً : غراً أن أخطأت فيك مثلى الأعلى . . . ساذجاً إن ظننت فى استطاعتى أن أجعل منك فتاة أحلام كاملة .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ لم تفعلى شيئاً ، وإنما هى طبيعتك . ألم تساورك يوماً رغبة فى التغلغل فى حياتى وأهدافى ؟ لا ، كنت فى اعتبارك عبداً ذليلا ليس له من عمل سوى أن يحرق بخور الولاء عند قدميك . . . تمنحينه من نفسك لا شىء وتتطلبين من نفسه كل شىء ، ولا عجب ، فأنت أنانية مسرفة .

ـ ألم أخرج معك طوال العام المنصرم ؟

ـ بلى . . . وإنما كنت تخرجين خروج السادة المتفضلين . عذبتنى وأشقيتنى ، فشغلتنى عن مستقبلى . . . انسقت

وراء الهواجس ، فرسبت فى امتحانى الجامعى الأخير .

ـ أكنت حقاً تستعد لامتحانك الأخير ؟

ـ أرأيت كيف أنك لا تحسين بوجودى أكثر مما تحسين بلعبة لطيفة رخيصة ؟ أجل . . . كنت أستعد له ، وكان حياتى كلها ، وكان عيشى ومستقبلى وقفاً عليه ، فلست مثلك صاحب بيوت وعقار وأصدقاء . إننى مواطن فقير ، عليه أن يشق طريقه بكده وعرق جبينه ، ولكن لماذا أثقل عليك بكل هذا الحديث ، ولست تفهمين منه شيئاً ؟ !

ـ إنك تظلمنى .

ـ بل أعرف حقيقتك ! !

ـ لو عرفتها ما اتهمتنى بما ذكرت .

ـ لا يهمنى ما تبطنين ما دامت الدلائل مذلة مهينة . يجب أن أفرغ لدروسى ، لأنجح فى اكتساب رزقى ؛ أما أن أضيع الوقت فى شق صدرك ، واستخراج قلبك ، لأحلل عناصره ، وأعرف من أى إحساسات نسجت خيوطها ، فعبث يكلفنى كثيراً . أنت خطر على مستقبلى ، فلنفترق قبل فوات الأوان . . .

وأغضبها منه هذا القول أشد الغضب ، فقالت رافعة الرأس شامخة الأنف :

ـ أظنك مصيباً فى كلامك ، فصلتى بك لم تكن إلا دعابة لا يصح أن أستمر فيها . بيننا فروق لا يمكن محوها ، ويسرنى أنك عارف ذلك مقدر له !

وأثلج صدرها أن رأت وجهه تكسوه حمرة قانية ، فتركته ذاهلا فى مكانه ، وانصرفت عنه باسمة ، ولكن البسمة لم تطل ، فعند ما طوتها جدران البيت الصامت ، وأطبقت عليها الوحدة الشاملة غمرها التعس والشقاء ، فبكت عن قلب موجوع وكبرياء جريحة .

وانقطع محمود عن المعهد منذ ذلك اليوم ، فانقطعت عائدة عن الحضور كسيرة القلب حزينة ، واتصل غيابه عاماً كاملا ، نجحت أميرة خلاله فى أن تخفى صورته عنها وراء ستار كثيف من المغامرات الطائشة التى اندفعت إليها راغبة أن تقضى على سآمة تلازمها كل أوقاتها حتى وقت انهماكها فى أى عمل . ولا شك أنه كان عاماً مسلياً توالت فيه الوجوه الجديدة ، لتختفى سريعاً يوم تملها : ومن هذه الوجوه زكى الريفى الثرى ذو الطابع الخشن والجوهر البهيمى . . . ومنها عطية أو الفطيرة البشرية الدسمة . . . ومنها إبراهيم العصفور المذعور . . بل منهم أصدقاء أستاذها الأخصاء ، وقد عرفت كيف تصل إليهم واحداً بعد واحد . وامتدت

صلتها ببعضهم شهوراً متعاقبة ، وقصرت ببعضهم الآخر أياماً معدودات ، إلا أن الأولين كالآخرين ، لم يتركوا عند ذهابهم غير شعورها بالراحة لخلاصها منهم .

وأقبل الصيف يحمل بشائر عطلة طويلة تنذر بالملل إذا لم تعد لها من التسلية ذخيرة وفيرة ، ثم تشاء الأقدار أن تعود خديجة من الصعيد بعد غيبة عامين ، ليتصل الود ، فترى صديقتها مشغوفة بمسراتها المستحدثة الرعناء . وتحز فى نفسها هذه المسرات ، ولكنها تختار أن تصمت عن التعليق تصريحاً أو تلميحاً ، وأصرت على الاعتصام بذلك الوجوم الأبكم الذى كانت تخافه أميرة ، وتخشى معانيه البليغة . وفيما مضى كان وجوم خديجة يغرى صاحبتها بالتؤدة والتروى ، أما اليوم فقد اختلف وقعه لديها ، فغدت تميل إلى تحدّيه واستفزازه ، متحدثه عن مغامراتها فى فخر ملحوظ ، ولذة ظاهرة مصطنعة ، عسى أن تفصح لدتها الوقور عن سخطها واستنكارها لما تفعله ، فتهدأ عاصفة أميرة ، وترتاح إن بلغت هدفها !

ولكن خديجة ظلت على صمتها الموجع ، محتفظة بوجومها فى إصرار أطاح بالبقية الباقية من وقار أميرة واتزانها ، حتى كان يخيل إليها أحياناً أنها تمقت صاحبتها بكل ما فى المقت من عنف ومرارة ، ثم تهدأ ثائرتها تدريجاً ، فيهمس هامس

فى أذنها بأنها لا تمقتها وإنما هى تمقت نفسها فى شخص غير شخصها . وإذا انبلج لها الحق واضحاً ، مثلت لها خديجة صورة جانب الخير فيها ، فتثور عليها من جديد ، وتذيقها من غضبها كئوساً تتجرعها الفتاة صامتة واجمة .

وتذكر أميرة كيف انتهى الموقف بحديث عابر ، ثم تطوّر إلى نتيجة غير متوقعة : فذات مساء كانتا تجلسان فى هذه الشرفة نفسها ترقبان قرص الشمس ينحدر من فوق رءوس الأشجار فى طريقه إلى الأفق . وأثارت الطبيعة كوامن أشجان أميرة ، فانبرت تقص على زميلتها ما استجد من مغامراتها ، وهى تسترق النظر إلى وجهها اللحظة بعد الأخرى ، عسى أن تقرأ فيه وقع كلامها .

قالت خديجة بعد صمت طويل :

ــ كم تغيّرت فى العهد الأخير ! !

ــ فيم تغيرت ؟

ــ فى أنك تقصين علىّ كثيراً من شئون حياتك الخاصة ، وكان عهدى بك حريصة على كتمانها .

وتساءلت أميرة عما تعنيه صاحبتها ، وخشيت أن تكون قد أسرفت فيما لا يجوز الإسراف فيه ؛ وإذا بخديجة تقطع عليها تأملاتها قائلة :

– كم بلغت من العمر ؟

– الثالثة والعشرين .

– وما زلت تتخبطين ؟ إن الأيام تمر يا صاحبتى ، فاسرعى بالاستقرار قبل أن يستعصى عليك .

– ماذا تقصدين ؟

– وهل فيما أقول غموض أو إبهام ؟ أريد أن تتزوجى إذا كانت الفرصة مواتية ، فمثل هذا العبث يسىء إلى اسمك ، ويحط من قدرك .

– لا يهمنى كلام الناس !

– بل يجب أن يهمك ما دمت تعيشين على أرضهم ، وتستظلين بسمائهم ، وإلا خرجت على أبسط قواعد اللياقة الاجتماعية . . . انظرى إلى الأمور بعين مصلحتك ، فأنت اليوم فى ريعان الشباب ، والوحدة تكاد تورثك الجنون ، ولست أحب أن أراك تفسدين حياتك بيدك .

– إنى واثقة بنفسى .

– ومن أجل ذلك فقدت ثقة غيرك بك ! إنى أفهمك أكثر مما تفهمين نفسك ، ولذا أنصحك بأن تتركى الأوهام والتخيلات .

وكانت أميرة فى هذه اللحظة تداعب خصلات شعرها

الصقيل بأصابعها فى سرعة قلقة ، فما تناهت الكلمات الأخيرة إلى سمعها ، حتى هدأت حركة الأصابع هدوءاً واضحاً ، وقالت فى تؤدة :

— أى أوهام وتخيلات ؟

— دعينا من لعبة القط والفأر ، لنواجه الحقائق صريحتين : إنك فقدت أستاذك ، ولست أظنه اليوم راغباً فيك بعد أن عرف بسلوكك وصلتك بتلاميذه وأصدقائه . لا تبتسمى هكذا ساخرة حتى أتم حديثى . أريد أن أقول إنك إذا كنت قد فعلت ذلك من أجل محمود . . .

والتفتت إليها أميرة مقاطعة ، وقالت :

— أجننت يا خديجة ؟

— ربما كنت مخطئة ، إلا أنى عند ما رأيته هذا الصباح يسير مع عائدة ، تساءلت أيكون اضطراب أميرة . . .

ولم تدعها أميرة تتم عبارتها ، إذ طغت عليها سورة الغضب ، وانفلت زمام تحفظها ، فاندفعت تقول :

— أنت مجنونة . . . مجنونة وغبية وبلهاء . . . أظننى أخطأت فيك الصديقة العاقلة . . . وأحمد الله أن تبينت خطئى .

وأنصتت خديجة إلى السيل المتدفق الصاخب ، فإذا

ما انتهى مستنفداً أنفاس صديقتها الغاضبة ، انتصبت واقفة وقالت في أنفة :

ـ الحق معك ، إني لغبية حقاً ، فوداعاً . . .

وانصرفت من الشرفة مسرعة

وخيل لأميرة وهي تستعيد فصول تلك القصة القديمة أن صوت خديجة ما زال يرن في أذنها قوياً موجعاً ، ولا غرابة أن يكون كذلك ، وصوت الحق دائماً قوي موجع ، لا يرحم قلوباً مرهفة ، ولا يجامل نفوساً جامحة . ولو أنها كانت مرهفة فحسب ، أو جامحة فحسب ، لهان الخطب ، وأمكنها أن تواجه الحق بدفاع واحد متماسك ، ولكنها كانت مرهفة وجامحة ، تجتذبها المعاني الرقيقة ، فتردها عنها نفس ثائرة تأبى إلا أن تكون حاكماً مستبداً .

وتذكر فيما تذكره من أحداث ذلك المساء ، كيف هدأت براكين ثورتها بعد أن خرجت خديجة من بيتها . . . وليتها ما هدأت ، فبأحضان الغضب يلوذ المرء عادة فراراً من مواجهة المنطق المتزن الواقعي ، وهي نعمة كبيرة إذا كان المنطق لا يتفق وما يحب أن يواجهه . ولو عرفت أميرة هذه الحقيقة ، لظلت غاضبة ثائرة تقول ما يرضي كبرياءها دون ضابط منطقي يقفها من قلبها موقف المتهم من قاضيه .

ولكنها لم تكن تعرف ، ولذلك فما كادت تبرح خديجة منزلها ، حتى زايلها الحنق عن ندم بالغ أن أطلقت العنان لمزاجها النارى الجامح ، ففقدت، صديقتها وناصحتها .

ولما كان الندم أول خطوة نحو المنطق ، سألت نفسها عن سر غضبتها المفاجئة ، ولم يكن فى حديث زميلتها ما يوجبها أو يستدعيها . ومع ذلك كانت كلماتها سياطاً موجعة ، فلماذا ؟؟ واختلطت صور كثيرة فى ذهنها ، ثم انجلت عن وجه وسيم يتأملها فى مرارة وسخرية . . .

كان وجه محمود يوم نزلت عن كبريائها لتسترضيه ، فانتهى الموقف بقطيعة مضاعفة . والحقيقة أن طيفه كان يخيفها ، وفى الوقت ذاته يسعدها ، وإلا فما سعت إلى الهرب منه فى أحضان مغامرات تافهة ، ألذ ما كان فيها تلك اللحظات التى كانت تغمض فيها عينيها ، وتتخيل أنها جالسة بجواره لا بجوار من تعاقبوا فى حبها . وإذا كان العهد قد طال ببعض محبيها ، فلأنهم عرفوا كيف يستمسكون بالصمت حين تحلق فى سماء الخيال ، ويناجى قلبها فتاها . وإذا كان العهد قد قصر ببعضهم الآخر ، فلأنهم جهلوا فلسفة الصمت ، وشاءوا بمناجاتهم السخيفة أن يشغلوها بهم ، ويحرموها لذة أحلامها ومتعتها .

وبدأت تفيق من سكرتها ، وترى أنها تسير فى طريق عاطفى خطر قد ينتهى بها إلى غير ما تحب . وتمثلت لها صورة والدها خلال مرضه : رجل محطم يخضع للعلة خضوعاً ، ولا يأنف أن يتأوه على مسمع منها ومن غيرها ، غارقاً فى رذيلة الضعف التى علمها أن تمتهنه وتزدريه . إنها على وشك أن تمثل ما استنكرته منه ، فاستسلامها لعواطفها الهوجاء ضعف مماثل لضعفه ، فيجب أن تحكم عقلها فى قضيتها ، وأن ترضى بحكمه مهما بلغت قسوته .

وصدر الحكم سريعاً واضحاً بأن شعورها نحو محمود طيش لا يصح أن تسترسل معه ، فالفتى على وسامته ولطف معشره ، تافه القيمة ، هزيل المكانة : سوف يعيش ويموت موظفاً صغيراً ، لا ترفعه موهبة ، ولا تدفعه إلى الأمام كفاية ممتازة . إنه واحد ممن وصفهم أبوها بأفراد قطيع بشرى خامل الذكر ، يعمل ليعيش فقط دون هدف عظيم يرمى إلى بلوغه . أما وزنه الاجتماعى ، فخفيف الكفة ، وقد اعترف لها ذات يوم ضاحكاً بأن أكبر رجال عائلته لم يبلغ مبلغ الأفندى بعد . فأين هذا المخلوق المغمور من فارس أحلامها الذى أخلصت له الوفاء منذ طفولتها إلى الآن ؟ ومما زاد الطين بلة أنه طغى واستكبر ، فثار على صلته بها ،

ونبذها فى عزم وإصرار ، مستعيضاً بفتاة مثل عائدة ، فهل فى مقدورها أن تمحو الاهانة البالغة ؟ وهل يرضى عزتها أن تسعى إلى وصل ما انقطع ، فتحل من نفسه محل هذه الفتاة التافهة ؟

وهتف بها هاتف خفى : أن اسرعى بالفرار منه قبل ان تحيق بك الغلبة ، فاتجه تفكيرها نحو الزواج ، وتراءى لها ملاذاً أميناً يحميها من الطيش ، ويرد إليها اعتبارها . ولم يكن الزواج عليها عسيراً ، وقلبها يحدثها بأن أستاذها ما زال ينتظر كما وعد ، وإنه لا شك منتظر ، فنظراته الساهمة ، ووجومه الدائم ، وترقبه المستتر الذى يلاحق به حركاتها وتصرفاتها ، تلك أدلة دامغة على أن مكانتها من قلبه لم تتزعزع أو تضعف . فضلا عن أنها بزواجها منه تكسب نصراً ينحر قلب الفتى الغرير ، ويثبت لحديجة خطأ أقوالها وظنونها .

وإذ تنفست الصعداء مرتاحة إلى هذا القرار ، رفعت رأسها ترقب الكون حولها ، فأدهشها أن الغسق البغيض أقبل وولى ، وهى فى شغل عنه بأفكارها . واكتست الحديقة الواسعة بحلة الليل الداكنة ، فأطل عليها صديقها النجم يداعبها بأضوائه اللامعة ، ثم غرد الكروان فى هدوء بعث

فى أوصالها نشوة لذيذة ، فقامت إلى فراشها تبتغى النوم مبكرة استعداداً للخطوة الحازمة .

ولم تمض من الصباح التالى ساعاته الأولى ، حتى كانت تسعى إلى المعهد فى تمام زينتها وأناقتها ، فإذا بلغت بابه الخشبى الكبير ، دب الذعر فى قلبها ، وخافت أن تكون قد تعجلت البت فى أمرها . وعاودتها رغبة ملحة فى أن تنكص على عقبيها ، لتعيد النظر فى قرارها . وبينا هى كذلك ، إذ أقبل عليها أستاذها ، فتبسم دهشاً وقال :

– جئت فى الوقت المناسب ، ولو تأخرت دقيقة ما وجدتنى هنا !

قالت متلهفة :

– بل أرجو أن تواصل مسيرك ، فما قدمت لأشغلك وأعطلك .

ولكن يده امتدت إلى ذراعها ، وجذبها فى رفق إلى دار المعهد ، وهو يقول :

– إن رؤيتك أهم لدى من الدنيا وما فيها .

وقادها إلى السلم الحلزونى ، ومنه إلى قاعة الجلوس الشرقية ، فلما جلسا جنباً إلى جنب ، ران عليهما صمت مطبق ، قال يغريها بالحديث :

ـ مفاجأة سارة .

فهزت رأسها باسمة ولم تجب . قال :

ـ أجئتنى بخبر طيب ؟

واحمر وجهها وهى صامتة ، فقال ضاحكاً :

ـ أعرف أن عبء الكلام عليك ثقيل ، فهل تحبين أن أعاونك ؟

ـ نعم

ـ إذاً ، هل اتخذت قراراً فى شأننا ؟

ـ أظن ذلك .

وسكت لحظة تلاشت فيها الابتسامة عن وجهه ، قال والجد فى نبراته :

ـ هل اتخذت هذا القرار بمحض إرادتك ؟

ـ ليس لأحد سلطان علىّ .

ـ طبعاً أردت فقط أن أستوثق من أنك غير مدفوعة إليه بمؤثر عارض ، فالحياة الزوجية أجل وأخطر من أن نخوضها مخدوعين أو متورطين .

ـ أعرف ذلك !

ـ أأنت واثقة ؟

وكادت تجيبه بأنها ليست واثقة ، لولا أن تمثلت لها

صورة عائدة وهى تطوف الشوارع مع محمود ، ثم صورة خديجة تهز رأسها فى غضب مكبوت وتقول لها : إن أستاذها لن يتزوجها بعد أن وقف على سلوكها الطائش مع تلاميذه وأصدقائه .

قالت فى تأكيد مفاجىء :

— كل الثقة .

— تمهلى فى إجابتك ، لأننى سوف أذكر ما تقولين دائماً ، فأحاسبك عليه حساباً عسيراً . لست بالرجل الذى يتساهل فى حقوقه ، ولا يغضبك منى هذا القول ، فإنما أريد به أن أمنحك كل فرصة للتراجع ، وإن كان تراجعك يشقينى ويعذبنى .

وعاد البشر إلى وجهها فأجابت :

— لا تخش شيئاً .

— إذاً ، فلنقتطع الماضى من حياتنا ، ونتزوج فى أقرب وقت .

٥

تململت أميرة فى مقعدها بالشرفة عند ما وقعت أنظارها على صديقها النجم ، فوجدته ما زال يطالعها من فوق الشجرة الكبيرة ، وقد انجلى تألقه الخانق عن نور هادىء يفيض بالرحمة والإشفاق ، كأنه عارف شديد احتياجها إليه فى تلك اللحظة التى تذكر فيها المرحلة الأخيرة من قصتها . أفليس غريباً أن تكون لذلك الكائن السماوى قدرة فذة على التغلغل فى شئون حياتها من غير أن يخفيها ويزعجها ؟ وهنا يظهر لها الفرق بينه وبين زوجها ، فهو وإن كان أيضا قادراً على التغلغل فى أطواء نفسها ، يستطيع بنظرة واحدة أن يكشف عما أمضت الأعوام فى تغطيته وإخفائه ، إلا أنها كانت تشعر فى حضرته أن قلبها مكشوف أمامه ، لا يحجبه ستر عن عينه النفاذة ، فكان هذا الشعور يخفيها ويزعجها إلى أبعد حدود الخوف والزعج .

والحقيقة أن هذه النظرات لم تعذبها طوال العام الأول من زواجها ، ففى ذلك العام شغلتها من الحياة ألوان جديدة

ارتمت فى أحضانها تعب منها فى نهم المتعطش إلى التغيير والتبديل . وكان الزواج فى حد ذاته لوناً من هذه الألوان ، فقد أذكى نيران غرورها أن تكون به صاحبة الشأن الأول فى حياة رجل شهير يتسابق الأخيار إلى حبه واحترامه وتبجيله ، وهو لاه عنهم بحبها واحترامها وتبجيلها . فضلا عن أن الحفلات الأنيقة التى كان يقيمها كل أسبوع ، وتجمع الوجوه المعروفة ، والشخصيات البارزة ، نجحت بما كانت تشتمل عليه من مرح وصخب فى أن تسدل بينها وبين الماضى ستاراً سميكاً حجب عنها الأشباح الهزيلة التى لعبت فى حياتها أدواراً .

وأحياناً كان الستار يرتفع ، فتستعيد القصص الماضية نادمة خجلة أن غرر بها الطيش ، فاسترسلت مع عواطف فارغة ، لا يصح لفتاة متزنة أن تخضع لها ، ثم يعز عليها أن تعترف بطيشها ، فتتلمس لنفسها أعذاراً واهية ، فتلقى تبعة زلاتها على وحشة البيت الذى كانت تعيش فيه ، وتحملها وزر ما اقترفت . وإنها لتحمد الله أن وطد زوجها عزمه على الاستقرار بين جدران البيت الأثرى ، وألزمها أن تهجر موطن طفولتها ، ولو لم يفعل ذلك ، لطاردها الخجل كلما دخلت شرفتها العامرة بذكريات طيشها ورعونتها .

وهكذا انقضت أول مرحلة من حياتها الزوجية فى نشوة تنتقل بها من لون بهيج إلى لون أبهج ، ومن صورة جميلة إلى صورة أجمل ، فلا يزيدها التنقل إلا رغبة فى استطلاع ما تبقى من خفايا النعيم الذى أقبلت على رحابه غير آسفة أو نادمة .

ولكن لكل جديد فرحة ، وأثر الحوادث فى بدايتها يخالف أثرها إذا تكررت ، فالتكرار دعامة الاستقرار ، والاستقرار نذير الملل ، ولذلك حين أقبل العام الثانى ، كانت قد عرفت كل ما تحب أن تعرفه ، وتذوقت كل ما يروقها تذوقه ، وتناولت من خمر اللذات جرعات مضاعفة أخمدت أجيج حماستها ، وأزالت عن أيامها طرافة الجدة وبريقها . وكان من أثر ذلك أنها لم تعد تشعر إلى جوار زوجها بذلك التيه الذى كان يرضى غرورها . أما البيت الأثرى بحفلاته المتصلة ، فإنه غدا كابوساً يجثم على صدرها ، فكانت تعمل على الخلاص من هذا الإحساس بالعودة إلى الماضى ، لتروح عن نفسها ساعة أو بعض ساعة فى أحضان ذكرياتها المدرسية . وتنتقل بها الذكريات عادة عبر الأعوام التى تليها ، فيرتفع الستار

عن مسرح تجاربها الأولى ، وتتوالى عليه أطياف كثيرة يمر بعضها مروراً سريعاً ، ويتلكأ البعض الآخر متباطئاً ، فترقب هؤلاء وأولئك ملتذة فى غير خجل أو ندم . وكثيراً ما كان محمود يمثل دور البطل بين هذه الشخصيات ، ويبدى من فنون المهارة ما ينتزع إعجابها ، وينسيها استصغارها السابق لمواهبه ومكانته .

وتعترف أميرة بأن أطياف الماضى كانت تمر عجلى فى ذلك الوقت : إذا أقبلت ، فللحظات معدودات ، كان من الممكن أن تسعد فيها بأحلامها ، لولا نظرات زوجها العميقة . ولا غرو ، فإن الرجل كان عجيباً فى تتبع إحساساتها ، يكاد يلمس منها ما ظهر وما بطن ، فإذا عاشت فى حاضرها ، عاش معها راضياً مغتبطاً ، وإذا استرقت الخطى إلى ما قبل الحاضر ، تبعها إلية حذراً واجما ، فيردها الخوف إلى واقع الحياة التى تحياها .

وظل واقع الحياة إلى مستهل العام الثالث محتملا مستساغاً ، فتطورات حالتها النفسية ، كانت بطيئة هادئة ، لا تبعث القلق ، ولا تنذر بثورة قريبة ، إلى أن اشتطت الأطياف بعد اتزان ، فأكثرت من زياراتها كثرة جعلتها تعيش فى ماضيها أضعاف ما تعيش فى حاضرها . وعند ما تتوارى

الأطياف تترك وراءها نوبات ضيق وملل وسأم يطول أمد كل نوبة عما قبلها . ويزول مع هذه النوبات كل إحساس بالسعادة ، فتزداد كراهية أميرة للبيت الأثرى ، ويتضاعف مقتها لحفلاته وضيوفه ، ويبلغ بها النفور من زوجها أن تراه رجلا عادياً لا يتميز من غيره فى قليل أو كثير ، بل هو يقل عنهم بسنه المتقدمة وعاطفته الباردة ، وعجزه عن ملء حياتها بما تحب أن تملأها به .

ويشتد بها الحنين إلى منزلها القديم ذى الحديقة الواسعة ، والشرفة العامرة بالذكريات . وترى بعين الخيال صورة أمها تطل عليها من فوق أريكة البهو ، وفى عينيها تلك الوداعة التى كانت تغريها طفلة بمحادثتها ، وإذ ذاك تنفجر مراجل أحزانها فى دموع سخينة تخفف حدة شجنها ومرارته .

وفى لحظات الصفاء القليلة ، كانت أميرة تراجع نفسها فى شأن الشقاء الذى يستبد بها دون سبب ، وكيف تكون له أسباب ، وكل ما فى حياتها يوجب السعادة والهناء ؟ ألم تتزوج رجلا كريماً يغمرها بفيض حبه ورقته وحنانه ؟ أو ليس هذا الرجل هو الرجل الذى كانت تفخر بصحبته ، وتتيه خيلاء بالعيش فى كنفه ؟ وهل كانت تستحق كل

هذا الخير الذى تستهين به اليوم وتزدريه ؟ ألا يجدر بها أن تحمد ربها ، وتشكر طالعها ، وتحب زوجها ؟ وتتوالى أسئلتها ، ومن بعدها تتوالى إجاباتها المنطقية الرصينة ، فإذا ما خيل إليها أنها وصلت إلى بر السلام والوئام ، عاودها القلق والتذمر ، فترى جنتها صحراء قاحلة ، وزواجها غلطة فاحشة ، وحياتها الحاضرة والمستقبلة ظلاماً فى ظلام .

وفى غمرة هذا الصراع النفسى ، كانت تشتاق إلى طفل صغير يشغلها بوجهه الضاحك ونبرات صوته العذبة عن التفكير فى شئونها الخاصة . ويبلغ بها الشوق أن ترى الأمومة نعمة الزواج الوحيدة ، فتعاتب الأقدار على قسوتها ، وتتمنى على الله ضارعة أن يمنحها الطفل المنشود ، ثم لا يلبث الشوق أن يفارقها ، فتؤنب نفسها على رغبة طائشة ، لو تحققت ، لارتبطت بالبيت الأثرى وصاحبه رباطاً لا تنفصم عراه .

ولما كانت فى أشد الاحتياج إلى التصبر ، عمدت إلى تلمسه فى هوايتها التى هجرتها منذ تزوجت ، ولكنها لم تجد دافعا كافياً للرسم ، فقصرت جهودها على رعاية الطلبة المترددين على المعهد . وكان هؤلاء الطلبة فوجاً

جديداً ، لا يمت إلى أصدقائها القدامى بصلة من الصلات ، فلم تجد حرجاً فى تبنيهم والعطف عليهم ، علها تجد فى الأخذ بيدهم ما يعوضها خسارتها وإخفاقها . وكانت تشعر بإشفاق مضاعف على من حرموا منهم موهبة الرسم ، فتؤثرهم بقسط موفور من جهودها ومعونتها ، وتجد فى تقدمهم بفضل إرشاداتها ، ما يخفف كثيراً من حدة شقائها وأحزانها .

ولم تكن وحدها فى هذا الطور الجديد ، فإلى جانبها وقف زوجها يرقب جهودها راضياً ، ويعاونها فى سعيها الطيب إلى معونة غيرها ، مؤيداً رأيها فى كل صغيرة وكبيرة ، متخلياً لها عن نصيب من الجهد يستنفد نشاطها وتفكيرها . فإنه كان يعرف من غير شك أنها تمر بمحنة دونها كل المحن ، وأن إنقاذها منها فى عونها على إبعاد ذهنها عما يشغله ، حتى تمر الزوبعة دون أن تطيح بصرح سعادتهما .

ولتحقيق تلك الأمنية ، لم يأل جهداً فى إفساح مجال العمل أمامها ، مسنداً إليها كل ما كان يقوم به من مهام ، مكتفياً بالإشراف والمراقبة فى تباعد رفيق .

ويشاء القدر أن يفجأها بما لم تكن تتوقعه ، فعند ما خيل إليها أنها ملكت زمام عواطفها ، ونجحت فى كبت

غليانها تحت ضغط عظيم صنعته إرادتها ، رأت محموداً يقف فى المعهد ذات مساء : طويل القامة ممشوقها ، وسيم الطلعة جذابها ، متدفق الشباب فى حياء أنضجته الأيام ، فاكتسب سمة الترفع والأنفة .... كان كعهدها به تماماً ، وإن تميز بهندام أنيق امتزج أثره الطيب بروح النضج التى تشيع حوله ، فكان ذلك المزيج صورة بديعة للرجولة المكتملة .

وتلاحقت ضربات قلبها فى عجلة جنونية غيّبت إحساساتها وسط دوّامة هائلة اختلط فيها الخوف والفرح والحزن ، حتى لم تعد تتبين حقيقة شعورها نحو الرؤية المفاجئة . ولأول وهلة زين لها الموقف أن تهرب من الحجرة قبل أن ينتبه زوجها وضيفه إلى وجودها ، فيكشفا فى وجهها ما تحب أن يخفى عليهما ، ولكنهما لم تستطع حراكاً ، فظلت فى مكانها ساكنة تعمل جاهدة على استعادة سيطرتها على نفسها . وأفلحت بعد لأى فى أن تمسك بزمام الموقف من جديد ، فكفّت الدوامة عن دورانها ، وإذ ذاك أمكنها فى غير حرج أن ترقب الضيف بلحظها ، فترى أنه يصطنع الجهل بوجودها ، والا فما معنى احمرار وجهه الشديد ، وما سبب تصلب فكّيه الواضح ؟ لا ريب

أن هذه الانفعالات ناشئة عن تأثره برؤيتها !

وغمرها سرور طاغ أعاد إليها شجاعتها ، فتقدمت من الواقفين فى خطوات وئيدة ، وقالت :

— أى ريح طيبة حملتك إلينا ؟

ولم يكن هناك مناص من أن يكف عن تصنعه ، فالتفت إليها متحرجاً ، وتمتم بكلمات متقطعة فهمت من مضمونها العام أنه سعيد برؤيتها ، وأنه جاء لاستشارة أستاذه فى أمر لوحة رسمها . قالت وهى ترمى إلى غرض آخر :

— ولكنكما تشغلان الطلبة عن التفرغ لعملهم ، فما رأيكما فى أن ننتقل إلى حجرة الجلوس ؟

أجاب زوجها ، وهو يتطلع إليها فى نظرات عميقة نفاذة :

— أسبقانى إليها ، وسألحق بكما عند انتهاء الدرس .

وسارت إلى جانبه يستخفها الفرح ، حتى إنها لتكاد تطير ، فلا تلمس الأرض إلا لماماً ، وحين احتوتهما الحجرة الشرقية ، جلست على مقعد مريح تهز قدميها كطفلة عابثة ، وقالت :

— لماذا لم تأت لرؤيتنا من قبل ؟

— لم يكن فى استطاعتى أن أفعل ، وقد قضيت السنوات الأخيرة بعيداً عن القاهرة .

— وهل كنت تقضى العطلات أيضاً بعيداً عن القاهرة ؟ !

— لا . ولكن مشاغل الحياة كثيرة .

— لست أرى فيها ما يصح أن يمنعك من زيارتنا ، اللهم إلا إذا كنت قد تزوجت .

— لم أنل هذا الشرف بعد !

— كنت أظنك على استعداد له منذ سنين !

وانفجر ضاحكاً وقال :

— أنت ... أنت ... لا تتغيرين أبداً !

— وهل كنت تحب أن أتغير ؟

— ليس لى اليوم حق فى أن أجيب عن هذا السؤال ، وإن كنت أعتقد أن التغير يفقدك شخصيتك المميزة ، فلو أقلعت من عبثك وسخريتك وجمودك ، ما كنت أميرة التى نعرفها .

وآلمها هذا القول بعض الألم ، فقالت ممتعضة :

— أما زلت على رأيك الخاطىء فىّ ؟ إننى أفضل كثيراً مما تظن .

— لا لست أفضل مما أظن ، ولو كنت أفضل ما أحبك الناس ، وما كنت فى الحياة مجدودة ، فالطيبون أشقياء فى هذه الدنيا .

— أو تظننى سعيدة ؟

— يجب أن تكونى سعيدة ، وزوجك رجل ممتاز ، قلما يجود الزمان بمثله . إنه الرجولة الكاملة ، والشخصية البارزة ، والكفاية النادرة .

— ليست الحياة كلها كفاية وامتيازاً !

— أنت ناكرة للجميل .

— بل أنت غبى جاهل كعهدى بك !

وابتسم ساخراً ، وقال هادئاً :

— كنت جاهلا غبياً فيما مضى ، أما اليوم فأنا أكثر ذكاءاً وعلماً !

— وبجهلك السابق فقدت فرصة طيبة !

وتبددت الدهشة على وجهه وقال :

— أتريدين أن توهمينى بأنك كنت جادة فى عاطفتك نحوى ؟

— وأنت ألم تكن جاداً فى عاطفتك نحوى ؟

— بلى ، ولكن أمرى يختلف عن أمرك ، فإن حياتك

كانت عامرة بالتجارب ، وكان حبى لك أول حب فى شبابى ، وللحب الأول منزلة عظيمة تحتفظ بجلالها على مضى العمر . فما أوسع البون بيننا ؟

— ومن أدراك أنى لم أكن مثلك ؟

وتجلت الحيرة فى عينيه ، وألقى بظهره إلى المقعد ساهماً مفكراً . وربما كان على وشك أن يعترف بأنه ما زال يحبها ، فيريح نفسها القلقة ، ويرضى كبريائها الجريحة ، لولا أن دخل زوجها الحجرة يحيى ضيفه ويكرمه !

وانصرف الضيف وأميرة فى سعادة شاملة لم تتذوق مثلها فى العامين الأخيرين . وبوحى من هذه السعادة كانت تضحكها كل كلمة تسمعها ، ويطربها كل قول يقال لها . وأكثر من ذلك أن أقبلت على زوجها باسمة منشرحة الصدر ، تداعبه وتلاطفه بما لم تداعبه أو تلاطفه به منذ عهد بعيد . غير أن سعادتها زادته وجوماً وحذراً ، ولم يسترع ذلك نظرها ، فإنها كانت فى شغل عنه بآمالها وأمانيها !

ومضى اليوم التالى بطيئاً ولم يعد محمود ، وتلته أيام أبطأ خيل إلى أميرة أن الزمن يقف فيها عن الحركة ، فسألت نفسها عن سبب غيبته : أتراها أخطأت فى

تقديراتها ، وأنه لم يأت إلا لاستشارة زوجها فى اللوحة التى رسمها ؟ أتكون عواطفه قد تغيرت ، وهو احتمال معقول بعد أن أساءت معاملته ، وتزوجت من غيره ؟؟ ولكنه اعترف بأنها كانت حبه الأول ، وللحب الأول منزلة خالدة فى النفس ، فانقطاعه إذا رعاية لحق أستاذه عليه. ولو لم تتزوج بهذا الأستاذ ما حال حائل بينها وبينه ، فلماذا تزوجت ، ولماذا تسرعت ، ولماذا أقحمت نفسها ، فيما لا تطيق الاستمرار فيه ؟ وتراءى لها زوجها أنه المخطىء الأول ، والمذنب الذى يستحق العقاب ، فثارت عليه بعد هدوء ، وبلغ بها النفور منه أن كرهت مجرد النظر إلى وجهه. وأحس الفنان الذكى بالثورة الجديدة ، وتبين معانيها الدقيقة ، فازداد تباعده عنها ، واكتفى بأن يرقبها بنظرات رهيبة لا يمكن أن تظل على صمتها طويلا.

وانقضت عليها أيام عشرة فى جحيم مستعر كاد يدفعها إلى طيش لا تحبه ولا ترتضيه لكرامتها ؛ فاليأس والحزن والضيق عوامل فعالة فى توجيه الفكر والرغبات ، وعليها يُبنى كثير من تصرفات الناس . وبينما هى تفكر فى الخلاص من حزنها بمغامرة جديدة ، إذا محمود يعود متأبطاً لوحة جديدة رسمها فى وقت فراغه ، واتخذها تكأة لزيارة

أستاذه . واستقبله الفنان فى ترحيب القوى الذى يأبى أن يكترث لأخطاء الضعفاء ، بل سمح له أن ينتظره مع زوجته فى حجرة الجلوس ، حتى ينتهى من عمله .

وضمتهما الحجرة مرة ثانية ، فجلست أميرة غاضبة واجمة ، قال لها محمود فى تخاذل :

— أين الابتسامة المشرقة ؟

— وهل تستحقها فأمنحكها ؟

— وماذا فعلت لتغضبى منى هكذا ؟

— لماذا لم تأت لزيارتنا فى الأيام العشرة الماضية ؟

— ولماذا أزوركم ؟

— لترانى !

فاستشاط غضباً وأجاب :

— ألا تعلمين أنك بهذه الأقوال وتلك التصرفات ، تصلين ما انقطع ، وفى ذلك خطر عليك وعلىّ ؟

— أى خطر ؟

قال فى ثورة مكبوتة :

— أى أمل ينتظرنا ؟ إذا كنت تعتقدين أننى أرضى اليوم بما كان يرضينى بالأمس ، فأنت مخطئة . كنت فيما مضى فتى غريراً كل أمله فى الدنيا أن يعبد صورة

كاملة ، ولفرط عبادته وتبتله يخاف أن يمسها بأصابعه . ولكنى الآن رجل ناضج ، مرت به تجارب كثيرة ، فعظمت رغباتى ، وأتسعت مطالبى ، ولكى ترضينى يجب أن تضحى ، ولكى أرضى نفسى يجب أن أضحى أنا أيضاً ، فهل نحن على استعداد للتضحية ؟

قالت فى ذعر بيّن :

– أضحى ؟ ؟ ! !

قال ساخراً :

– لا . لن تكون منك تضحية ، فما عواطفك هذ إلا نزوة جديدة من نزواتك الكثيرة ، وستزول النزوه عند م تمليها ، لأدفع أنا الثمن ، وسوف أدفعه حتما ، لأنى لست ماجناً بطبعى !

وإذا كانت فى المرة السابقة ضايقها دخول زوجها الحجرة قبل أن ينتهى الحديث بينها وبين محمود ، فإنها ارتاحت كل الارتياح عند ما أقبل فى هذه اللحظة ليشاركهما فى الجلسة ، بعد أن أقلقتها الكلمات الأخيرة بما فتحته أمامها من آفاق للتفكير لم يسبق لها أن خاضتها . ولأن هذه الآفاق حركت فيها غريزة الحذر ، فقد ارتاحت وهى تراه مقبلا عليهما فى ابتسامة تشبه الزمجرة .

وانقضت تلك الليلة ، وأميرة تتقلب فى فراشها مسهدة ، فتتقلب الأفكار فى رأسها متطاحنة متضاربة : إن محموداً على حق فى أقواله وتحذيراته ، فهى بمحاولتها وصل ما انقطع بينهما ، تحفر هوة عميقة تحت قدميها . والعجيب أنها لم تنظر إلى المشكلة فى هذا الضوء من قبل ، فإذا كان حبها لمحمود أغراها باجتذابه ثانية ، إلا أنها فى الواقع لم تكن تنشد من اجتذابه أكثر من الاستمتاع بعبادته القديمة لها ، لتعود إلى العيش فى لذة الأيام الخالية . وكانت لذة بريئة طاهرة ، لاشين فيها ولا ضرر ، أما اليوم فالأمر يختلف ، وهى المرأة المتزوجة التى تعرف من الدنيا أضعاف ما كانت تعرفه منذ سنوات قليلة . ثم إن محموداً الآن غيره بالأمس : إنه رجل ناضج مرت به تجارب كثيرة ، وعاطفة تقوم بين امرأة متزوجة ورجل ناضج ، كفيلة بأن تقودهما إلى الدمار ، ما لم يكن لها هدف مشروع . فهل هذا الهدف المشروع ضمن برنامجها ، وإذا كان ، فهل هو لمصلحتها وسعادتها ؟

وجعلت تقلب حياتها على مختلف أوجهها ، فلا يزيدها التعمق فى ذلك إلا إيماناً بخطئها الفاحش : حقيقة أنها تحب محموداً ، وأن حبه كان مبعث شقائها الطويل ،

غير أن استمساكها بحياتها الزوجية ، فرض محتوم ، فإنها أقبلت على الزواج بمحض إرادتها ، ولم يدفعها إليه أو يغرها به أحد . فضلا عن أن زوجها كان أحكم من أن يلبى دعوتها قبل أن يمنحها كل فرصة للتراجع ، فإن تنكص على عقبيها بعد ذلك ، تصب بهزيمة وإخفاق لا تستطيع أن تواجه بهما نفسها أو غيرها . عليها إذاً أن تسير إلى نهاية الطريق الذى اختارته غير مجبرة ، وأن تجرع بقية الكأس التى ملأتها بيدها ، وإلا كانت امرأة ضعيفة طائشة تأتى من الأفعال ما لا تقدر عقباه ، ثم تجبن عن تحمل نتائجه !

وينزل عليها منطقها برداً وسلاماً ، فتسير بتفكيرها إلى أبعد من ذلك : إلى المقارنة بين ظروفها ومطالبها ، وبين ظروف الفتى وموارده : فهى بحكم نشأتها ، وأحوال زوجها اعتادت كماليات كثيرة ، لو حرمتها اليوم ، لضاقت ذرعاً بعيشها . ومحمود رجل فقير كل ثروته راتب لا يفى بأكثر من نفقات ملبسه ومطالب حياته المتواضعة ، فهل هى على استعداد لأن تتخلى من أجل الحب عما اعتادته ونشأت عليه ؟ إن الحب لا يحتمل الفقر ، إذاً فالزوجة الموافقة لمحمود يجب ألا تكون على شاكلتها ، بل فتاة نشأت

فى مثل ظروفه وأحواله : فتاة قنوع ، يرضيها القليل ، وتكفيها الضرورات دون الكماليات .

وتوصد الأبواب بينها وبين فتاها ، فلا يبقى أمامها إلا منفذ واحد يمكنها أن تشبع به عواطفها منه ، دون التضحية برابطة الزواج ، ولكن هذا المنفذ أبغض إلى قلبها من نيران الحرمان وجحيم الشقاء . إنه المهانة بأكمل معانيها . إنه المذلة فى أقبح صورها ، فهى لم تخلق لتخون زوجاً أو غير زوج ، وذلك لعلة واحدة بسيطة ، وهى أن الأقدار بلتها بداء الأنفة ، ومن طبيعة الأنفة الترفع والصراحة والتحفظ ، وكلها تتعارض وما فى الخيانة من ضعف وتستر وابتذال .

وعند ما تنفس الصبح ، واستقبلت أميرة حياتها اليومية المعتادة ، كانت تتمنى من صميم قلبها ألا يعود فتاها إلى المعهد مرة أخرى ، ولكن أمنيتها لم تتحقق ، ففى المساء رأته يتحدث إلى زوجها ، وفى وجهه من علائم الخضوع ما ينم على هزيمة واستسلام . واستبد بها الرعب ، ودبت الرجفة فى أوصالها ، وإذا بهاتف يناشدها الحزم ، فتسترد شجاعتها من فورها ، وتتأمله فى برود وجمود قبل أن تنصرف من الحجرة مسرعة .

وتوالت زيارات محمود ، وفى كل زيارة كانت ترى

فى وجهه جديداً من النذر المقلقة ، وتقرأ فى محياه قصة حبه الغامر ، واستسلامه التام للاغراء . وكانت القصة الصامتة نداءً صارخاً ظلت تقاومه أياماً كثيرة ، مستعينة بكل ما وسعها من قوة ومثابرة على مجافاته والبعد عنه ، حتى كانت تمر زيارات لا تبادله فيها كلمة أو تحية . ولكن هذه القوة بدأت تخذلها تدريجاً ، وشعرت أن مقاومتها تتضاءل فيها كما تتضاءل الحياة فى جسم يلفظ أنفاسه الأخيرة . إلى أن رأت أنها تكاد تسير إلى النهاية مغمضة العينين ، فكانت تلك الحال تفزعها وتشقيها ، فتعمد إلى البكاء حتى تخف آلامها ، لتعود فى اليوم التالى أضعافاً مضاعفة .

وتذكر أميرة أنه لم يمر بها أشق من تلك الفترة التى تناوبتها فيها عوامل متناقضة ، وبقدر ما كانت تنكرها كبرياؤها ، كان يستسيغها قلبها ، فهى فى لحظة من اللحظات سيدة أبية لا ترضى الخيانة ولو أن حياتها مرهونة بها ، وفى لحظة أخرى امرأة تغلبها العاطفة ، فتناقش إباءها بمنطق جديد : لماذا لا تجيب نداء قلبها ، وفى إجابته سعادتها ؟ أليس انتهاز فرص السعادة حقا لكل إنسان ؟ ولقد كان صوت الاغراء والعاطفة يسير بها إلى أبعد من ذلك :

فيهتف بها هل تنكر الوسيلة إذا كانت الغاية حقاً مشروعاً ؟ ثم ما الخيانة أولا وآخراً ؟ إنها كلمة جوفاء أملتها تقاليد اجتماعية منافقة ، فالخيانة ليست فى استرداد السعادة المفقودة ؛ وإنما هى فى خديعة القلب ، وسلبه بواعث راحته واستقراره .

وكان من الجائز أن يتصل الصراع أياماً أخر ، وكان من الجائز أيضاً أن ينتهى إلى غير ما انتهى إليه ، لو لم يخرج زوجها ذات مساء لحاجة عاجلة ، فاضطرت إلى استقبال محمود وحدها ، وهو آخر ما كانت توده فى ذلك الوقت ونفسها تحدثها أن سلامتها فى بقائها على مبعدة منه حتى يستقر أمرها على رأى أو اتجاه .

وعند دخوله كانت تقف إلى النافذة واجفة القلب متشائمة ، فأمامها الغسق الرهيب ينشر على الكون غلالته الرمادية البغيضة ، وفى ثناياها معانى البؤس والشقاء ، وتمثلت لها اليد الحديدية الباطشة تزحف إليها فى بطء وحذر ، فارتدت خطوة إلى الوراء ، فإذا بصدر محمود يصدمها . قالت فى جزع بيّن :

— أنت ؟ ؟

— نعم .

— لم أسمع وقع قدميك .

— لأنك كنت مشغولة بحديث السماء !

وأثار ذكر السماء كوامن أشجانها ، فأسندت رأسها إلى كتفه ، وانفجرت تبكى بكاءً مرًّا . قال وهو يربت رأسها برفق :

— سامحينى يا أميرة .

قالت وهى تغالب دموعها وشهقاتها :

— ليس الذنب ذنبك .

— بل ذنبي وحدي ، فما كان يصح أن أعود ، وما كان يليق أن أطاردك بزياراتى ، ولكنك تعلمين منزلتك فى نفسى . كنت حبى الأول ، وما زلت حبى الأول ، فهل ألام إذا رعيت العهد وحفظته ؟ لقد لازمنى طيفك طوال السنوات الماضية ، وحال بينى وبين المتعة ، فزهدت كل امرأة عرفتها ، وعشت آمل إتمام الأسطورة الناقصة . وكان جل ما أخشاه ألا تتم هذه الأسطورة أبداً ، فلا أجد ما أعيش به فى شيخوختى . إن الشيخوخة كما تعلمين وحشة ووحدة ، فإذا لم ندخر لها ذخيرة من الذكريات الغالية العزيزة ، عشناها أمواتاً أحياءً ، وهو أقسى ألوان العيش وأمّره .

وتخيلت أميرة نفسها عجوزاً شمطاء ذهبت السنون بحيويتها ونشاطها ، فقنعت من الحياة بالجلوس أمام نيران

الموقد ، تتأمل اللهب المتراقص ، وليس فى ذكريات شبابها ما يستحق أن تستعيده وتعيش بلذته . إن حياتها كانت فارغة ، وما زالت فارغة ، فبماذا تجيب شيخوختها يوم تسألها عن شبابها ؟ أتقول إنها أفسدته بمحض إرادتها ؟ أتقول إنها حطمت قلبها إرضاءً لغرور كاذب ؟ ولكنها تعود فترى الفرصة ما تزال مواتية ، وفتاها بين يديها ، فهلاّ يصح أن تملأ شبابها اليوم بما يؤنس شيخوختها غداً ؟

قال محمود :

— إننى رجل شريف طُبعت على الاستمساك بالمثل العليا ، ولكنى شقيت طويلا ، أفليس من حقى أن أسعد بعد شقاء ، أو ليس من حقنا أن نغرق همومنا فى ذلك البحر السخىّ بخمر التعويض والنسيان ؟

ومرة أخرى سبحت أفكارها فى ذلك البحر الخضم الذى استقى منه أناس منذ قديم الأزل ، والذى سيستقى منه أناس إلى يوم الآخرة ... فهل تلام إذا أقبلت عليه مثلما أقبل غيرها ؟؟ وهل عليها من حرج إذا ارتشفت منه رشفة واحدة لن يعلم بها زوجها أو غير زوجها ؟

وما وصلت أفكارها إلى هذه النقطة حتى تجهم لها ضميرها : إنها رشفة واحدة لن يعلم بها زوجها أو غير

زوجها ، ولكنها لن تغيب عن عزتها المستبدة الطاغية ، فهل هى على استعداد لمجابهتها ؟ وهل تقوى على الحياة إذا أسلمتها لتأنيب نفسها ولذعاتها ؟ لقد كانت نفسها رقيباً صارماً يناقشها الحساب فى غير رفق أو هوادة ، فلو أمنت شر عزتها ، ما أمنت حساب نفسها العسير ، فكيف تتأتى السعادة فى جو كله لوم وتأنيب وازدراء ؟ وهل يكون الحب حباً إذا تخفى وتستر ، وهل تكون الذكريات ذكريات إذا تلطخت بوحول الذلة والهوان ؟

قال محمود :

— لقد ضيعنا من عمرنا سنوات فى فرقة مضنية ، والعمر — مهما طال — قصير ، فلنسرع بتلبية نداء السعادة قبل فوات الأوان ، شأننا فى ذلك شأن غيرنا من الناس : شأن ذلك الجيش البشرى الذى يؤمن بالعاطفة ، فيسير معها راضياً مستسلماً .

ورن التشبيه فى أذنها رهيباً ، وقد تذكرت أنها سمعته من قبل ، ولكن لغرض آخر . وكان قائله شيخاً مريضاً ذهبت العلة بلحمه وشحمه ، فضمر وجهه ، وخبا بريق عينيه ... أبى أن يموت قبل أن يحذرها الأنسياق وراء العواطف التافهة ، كارهاً لها أن تعيش فى جيش كبير خامل الذكر ،

أو على حد تعبيره فى قطيع بشرى يسير فى طريق الحياة محروماً من التعقل والحكمة .

وجن جنونها عند ما خيل إليها أن الشيخ يجلس الآن قبالتها على المقعد المريح المواجه لها ، وأنه ينظر إليها وعلى فمه بسمة ساخرة مبعثها أنه كان يريد ويأمل منها أن تكون قوية كالحياة ، صلبة كحواجز الأمواج ، فإذا بها توشك أن تخذله بضعفها أمام أول إغراء يمر بها . واشتد بها الجزع ، وهى تراه يهز رأسه بازدراء ، وكأنه يقول : ظننتك تحفة صنعتها من روحى ، لتبذ مثيلاتها دقة وإبداعاً ، فيا لخيبتى فيك ! !

قالت لمحمود ثائرة :

ــ عمن تتكلم ؟

ــ عنى وعنك يا عزيزتى .

وكان جوابه ضغثا على إبالة ، فقالت والكلمات تندفع من فمها فى غير تدبر أو حكمة :

ــ أتظننى أحبك ؟ أتعتقد أنى كنت أبكى من أجلك ؟ لو صح هذا لكنت غبياً مغروراً !

ــ أميرة ! ؟

ــ لا تقاطعنى ، واستمع إلى بقية حديثى ، ففيه أخبار

جديدة تهمك : لست أحبك ، ولم أحبك يوماً ، فعد إلى عقلك ، وثب إلى رشدك ، ولا تحسن الظن بى أكثر مما ينبغى . إن بيننا فروقاً لا يتأتى معها الحب والهيام !

– كفى !

– لم أنته من حديثى بعد ، أما وقد رأيت فيما قلتُ الكفاية ، فاذهب سريعاً قبل أن أسمعك ما لا تحب أن تسمعه . اخرج . . . اخرج . . . اخرج .

وجعلت تكرر الكلمة فى غضب جنونى ، حتى غاب عن سمعها وقع أقدامه ، وإذ ذاك عاودها الهدوء ، فوقفت ساهمة تنظر إلى المقعد الشاغر قبالتها فى تحد ممتزج بالعتاب ، ثم استدارت وهرعت جرياً إلى حجرتها .

وانقضت أيام ، وأميرة لا تبرح حجرتها ، إذ كانت فى شغل شاغل ترسم لوحة جديدة دفعتها إلى رسمها رغبة ملحة فى أن تعبر عما بنفسها . والعجيب أن فكرة الصورة لم تكن من وحى الحاضر ، ولا من وحى ما يسبق الحاضر بقليل ، بل كانت لمحة من الماضى البعيد ، من ذكريات قديمة منسية ، بعثها ما حدث حية مجسمة .

وتحركت ريشتها فى عظمة وإتقان ، ترسم خطاً هنا ، وخطاً هناك ، وأميرة مستسلمة لتلك القوة الدافعة دون تفكير

أو مقاومة ، فلما انتهت ، كانت لوحة رائعة ، لفتاة صغيرة حطمت دميتها العزيزة ، ثم جعلت تتطلع إلى أجزائها المتناثرة هلعة باكية . وكان وجه الطفلة يتحدث بأكثر مما فيه من مظاهر الألم : يتحدث بالشقاء والثورة وضياع الثقة وخيبة الأمل ، امتزجت فى قصة طويلة ، لفتاة حائرة لم تعرف يوماً ما تريد ، فأخطأت كل ما تريد ! !

وكانت تعلم أن زوجها قد انصرف عن البيت فى هذا المساء مبكراً ، بعد أن حاول دون جدوى أن يتحدث إليها ، فلم تصغ إليه . ولم يكن يهمها أين ذهب ، أو بماذا كان يريد أن يحدثها قبل انصرافه ، وإنما الذى كان يشغل بالها أن البيت خال منه ، وأنها تستطيع أن تحمل لوحتها إلى حيث تراها واضحة جلية . فحملتها إلى البهو ، وأسندتها إلى الحائط ، ووقفت على مبعدة تتأملها بعينين نديتين ، وتناجيها بألفاظ عذبة ، كأنها مخلوق حى فى أشد الاحتياج إلى المؤاساة . وكانت الصورة فعلا حية فى ذهنها ، فلم تكن الفتاة الصغيرة الماثلة فيها مجرد طفلة كسرت دميتها ، بل امرأة حطمت سعادتها بيدها ، لتعيش ما بقى من العمر آسفة نادمة . فلماذا حطمت سعادتها ، ولماذا جلبت الشقاء على نفسها ؟

وتردد السؤال فى ذهنها مراراً ، فكان الجواب كل مرة واحداً لا يتغير : إنها فعلت ذلك قياماً بواجباتها الزوجية ، ولولا هذه الواجبات ، ما حال حائل بينها وبين المتعة التى تبتغيها . فمبعث مأساتها أنها تزوجت من رجل لم يستطع أن يسيطر على مشاعرها ، ومثل هذا الرجل يجب أن يلام ، بل عليه يقع كل اللوم على ما حدث . حقيقة أنها تزوجته بمحض إرادتها ، ولكنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن فاتحها فى أمر الزواج ، ولم تكن على استعداد له ، ثم ترك الباب مفتوحاً أمامها ، ليغريها بولوجه هرباً من حب محمود . فلما ارتبطت به ، وانتهى الأمر ، شاء بعينه النافذة وكبريائه الشامخة أن يرى ما تخفيه جوانحها صامتاً مترفعاً . وكانت تعرف أنه يعرف ، وكان يعرف أنها تعرف ؛ فلماذا لا يتكلم ولماذا يتسامى هذا السمو الذى يثقل على صدرها ، حتى يكاد يخنقها ؟

وتراءى لها زوجها شيطاناً مريداً ، له عقل الجبابرة ، وصمت القبور الموحشة ، وعجبت كيف أنها تعيش معه ، وتمنت لو استطاعت النجاة بالفرار منه ، لا من أجلها وحدها ، بل من أجل هذه الطفلة المسكينة التى تتوسط اللوحة باكية حزينة .

وتعالى صوت زوجها عند باب البهو يقول :

– أما زلت يقظى والليل قد انتصف ؟

وكانت مفاجأة قفزت معها أميرة من مكانها ، لتقف بينه وبين اللوحة ، كأنها تريد أن تحميها من شر تتوقعه . فابتسم فى وجهها قائلا :

– يؤسفنى أن أزعجتك .

قالت غاضبة :

– لو توجهت إلى حجرتك هادئاً ، لجنبتنى الزعج ، وجنبت نفسك مشقة الاعتذار !

– إنما قصدت أن أقص عليك أخباراً مسلية .

– لا أظننى أميل إلى سماعها الآن ، فلنتركها إلى غد .

– حسناً . . . حسناً ، ولكن ما هذه اللوحة التى تخفينها وراءك ؟

– إن شأن لوحتى يعنينى وحدى .

– طبعاً ، ولكنك تعرفين مبلغ تقديرى لمواهبك ، فأرينى هذا الجهد الجديد .

وتقدم من زوجته فى خطوات رزينة ، وعند ما وصل إليها ، أزاحها عن طريقه فى رفق ، فبانت الصورة أمامه واضحة . وغلبته طبيعة الفنان الناقد ، فتراجع خطوات إلى

الوراء يعالج النظر إليها من مختلف الزوايا ، وفى وجهه أبلغ مظاهر الاعجاب الصريح . وظل ينظر وينظر ، ولا ينطق بكلمة واحدة ، حتى إذا تغلغل فى معانى الصورة ، وأدرك فلسفتها ، اكتسى وجهه بحمرة خفيفة زادت تقاطيعه صرامة وصلابة .

قال وهو يتهالك على مقعد قريب :

ــ إنها قطعة ممتازة ، وأنصح لك بعرضها فى أقرب فرصة .

ــ لم أرسمها لتعرض .

ــ وهل عليك من غضاضة فى أن تعرضيها ؟

ــ كل الغضاضة .

ــ إذاً كنت تخافين الأعين الفاحصة ، فثقى أن أحداً غيرى لن يعرف سرها !

ــ أى سر ؟ !

ــ سر الشقاء والثورة وخيبة الأمل !

ــ إنها طفلة حطمت دميتها .

ــ وامرأة لم تعرف يوماً ما تريد ، فأخطأت كل ما تريد !!

قالت فى غلّ :

ــ ربما تكون قد اهتدت أخيراً إلى حقيقة رغباتها .

ــ لا ، بل أنه خطأ جديد ، فالقلق حليفها ، والحيرة

مقدرة عليها !

— إنك تحتقرها وتزدريها .

— بل أشفق عليها وأرثى لها !

— لستُ فى حاجة إلى شفقتك .

هتف منتصراً :

— هكذا يكون الكلام ، فالصراحة أجدى من التورية والتلميح ، ومجابهتنا الواقع حكمة بليغة تسرع بالفصل فى قضيتنا الخاسرة ، ولا أظنك تنكرين الآن أنها كانت قضية خاسرة منذ بدايتها .

— لم يكن ذنبى أن عجزتَ عن ملء حياتى .

— ولماذا عجزتُ ، وأنا الذى بذلت كل ما وسعى لأسعدك ؟ عجزتُ لأنك أنانية بطبعك ، وما تسمينه حياتك قرارة عميقة شرهة تطوى كل ما يودع فيها ، ولا تمتلىء أبداً . إننى أودعتها كثيراً من الحكمة والتسامح والكرم والاغضاء ، فابتلعتها ، ولم يظهر بها أثر لمعانيها النبيلة . إذاً فلا أنا ولا غيرى يستطيع أن يسدّ مطالب هذه القرارة الشرهة .

— إذا كان شعورك هكذا ، فلماذا لم تتكلم من قبل ؟

— لأننى لم أشأ أن أنزل إلى مستوى العامة الرخيص . كنت أرى ما لا أحب أن أراه ، وأحس بما أكره أن أحس

به ، فأسكت وأحتمل ، لا عن ضعف واسترخاء ، بل عن ترفع وتسام ، منتظراً ذلك اليوم الذى يرتفع فيه النقاب عن عينيك ، فترين القيم البشرية على حقائقها ، وتميزين بين غثها وسمينها ، وإذ ذاك تدركين مبلغ الضلالة التى كنت تتخبطين فيها . ولو أننى انتزعت النقاب قسراً ، لركبك عنادك الأهوج ، واشتط بك فى غير الطريق الذى أنشده ، فاخترت أن أتركه ، حتى ترفعه يد الأيام تدريجاً ، فترين من تلقاء نفسك سبيل الحق والنور . ولكنه لم يرتفع ، لأنك شئت أن تجافى منطق العقل الرصين .

وبدأ ينتابها الشعور بأن قلبها مكشوف أمامه ، فقالت غاضبة :

— بل إن منطق العقل كان محنتى وعذابى .

— وهنا تقعين فى الخطأ من جديد ، فما تعتقدينه منطق العقل ليس إلا صوت الغرور . أنت مغرورة جداً ، وغرورك فطرى يفتقر إلى الترويض والتهذيب والتوجيه ، وإلا فما أغراك بالسعى وراء ما يبدو بعيداً عن متناول يدك . فإذا نجح سعيك ، ونلت بغيتك ، زهدت فى غنيمتك ، وتطلعت إلى أخرى مستعصية . إنها موهبة جديرة بالدرس ، فمنها يكون النصر هزيمة محققة !

قالت غاضبة :

– إننى أكرهك .

– لا أظن ذلك ، فأنت أجهل الناس بحقيقة عواطفك ، لأنك فى حرب دائمة معها ، ومن شأن هذه الحرب أن تقطع الصلات بينك وبينها ، فلا ترين منها غير ظواهر خداعة . ولكنى آخذك عند كلمتك ، وأحلك من العلاقة البغيضة إلى نفسك ، ونترك ما تبقى للزمن . أتحبين أن أرحل عن البيت غداً ؟

– لا ، بل سأرحل أنا .

– أمرك .

وسار إلى الباب متمهلا ، حتى إذا بلغه ، استدار إليها ، وقال فى ابتسامة حزينة :

– كنت أبتغى أن أخبرك بزواج محمود من عائدة ، فإذا بالكلام يجرفنا إلى موضوعات أخرى ، ونتائج غير متوقعة !

– أتزوج حقاً ؟ ؟

– منذ ساعات ، وهذا ما أخرنى عن العودة فى الوقت المناسب .

قالت وفى صوتها رنة عتاب :

– وكنت تعلم بمقدمات ذلك ؟ !

– لم أكن أعلم بالزواج حتى ظهر اليوم ، وحاولت قبل خروجى أن أخبرك ، فلم تعطينى الفرصة !

– إننى أكرهك .

– لا أظن ذلك ، فأنت أجهل الناس بحقيقة عواطفك ، لأنك فى حرب دائمة معها ، ومن شأن هذه الحرب أن تقطع الصلات بينك وبينها ، فلا ترين منها غير ظواهر خداعة . ولكنى آخذك عند كلمتك ، وأحلك من العلاقة البغيضة إلى نفسك ، ونترك ما تبقى للزمن . أتحبين أن أرحل عن البيت غداً ؟

– لا ، بل سأرحل أنا .

– أمرك .

وسار إلى الباب متمهلا ، حتى إذا بلغه ، استدار إليها ، وقال فى ابتسامة حزينة :

– كنت أبتغى أن أخبرك بزواج محمود من عائدة ، فإذا بالكلام يجرفنا إلى موضوعات أخرى ، ونتائج غير متوقعة !

– أتزوج حقاً ؟ ؟

– منذ ساعات ، وهذا ما أخرنى عن العودة فى الوقت المناسب .

قالت وفى صوتها رنة عتاب :

– وكنت تعلم بمقدمات ذلك ؟ !

– لم أكن أعلم بالزواج حتى ظهر اليوم ، وحاولت قبل خروجى أن أخبرك ، فلم تعطينى الفرصة !

مع هذا النصر لا تنشد من الحياة غيرها .

واستعادت حياتها فى صورة سريعة متصلة ، فوجدتها سلسلة نزوات طائشة ، أكبرها وأخطرها تلك النزوة التى دفعتها إلى الرغبة فى ترويض محمود ، وبسط سلطانها عليه ، لا لشىء غير شعورها بخضوعه لفتاة غيرها . ولو لم يلجأ إلى القطيعة قبلها ، ويبادئها بالزهد فى الصلة التى كانت تربطهما ، لزهدت فيه كما زهدت فى كل غنيمة تمكنت منها ، ولكانت صورته الآن بين المهملات البعيدة المنسية . أما وقد أثار بسلوكه عنادها وكبرياءها ، فإنها حسبت الغرور حباً ، وأسلمت قلبها لأوهام جسمها القلق المتأصل فيها ، وغذتها رغبتها الدائمة فى إملاء إرادتها .

وبدا لها محمود فى أضواء جديدة ، لا تبرز أوهاماً ، ولا تخفى حقائق ، فرأته كما يجب أن تراه : فتى قليل المواهب ضئيل الذكاء ، قنوع بأهداف سهلة يسيرة . واحد من أفراد جيش بشرى خامل الذكر يسير إلى الأمام متمهلا متوانياً ، لأن غايته القريبة لا تخرج عن حدود تأمين الحياة فى أبسط صورها الممكنة .

وكما تراءى لها محمود شخصاً عادياً ، تراءى لها زوجها رجلا ممتازاً ، له شخصية فريدة ، وأنفة شامخة ، ونفس أرفع

من أن تهبط إلى الدرك . وإلا فما أحبها ، وأبى أن يفرض عليها حبه ، حتى تقتنع بحاجتها إليه ، فتأتيه مختارة غير مجبرة . ولقد أتته فعلا ، واختارته بمحض إرادتها زوجاً لها ، فشاء أن يمعن فى سموه ، وأن يبقى بمنأى عن ثوراتها النفسية : يرى كل شىء ، ولا ينطق بشىء ، لأنه كره أن يكسبها بغير إرادتها ورغبتها . أما وقد أعياه ذلك ، وهو الذى يعلم طيشها ، ويدرك نقائصها ، فإنه عرف كيف يعاقبها بأن كسب قلبها فى اللحظة التى نبذها فيها ، وقطع صلته بها ، فيا لتسامحه البالغ ، ويا لعقابه الصارم !

هكذا عادت أميرة إلى بيتها القديم ، وشرفتها العزيزة الفسيحة ، لتجلس فيها كل مساء تستعيد قصة حياتها ، فتنتهى كل مرة بأن ترى سعادتها ماثلة أمامها ، ولكن لا سبيل إلى بلوغها ، فإن كبرياءها الطائشة تبغضها فى إعلان ندمها واعتذارها ، فضلا عن أن الطعنة التى أصابت بها قلب زوجها وعزته ، كانت عميقة الأثر . ومثل هذه الطعنة أجل من أن يندمل جرحها بالندم والاعتذار والاسترحام .

وحمل إليها نسيم الليل غناء كروان بعيد ينشد بين النجوم الساهرة أغنية الزمن بلسم الجراح والآلام ، فتنهدت أميرة مرتاحة ، وقد عاودها الأمل أن تصلح الأيام ما أفسدت ! !

مكتبة الأطفال

للاستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من أربعين كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه فى جميع البلاد العربية .

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

شفيق نجيب متري وشركاه

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

مطبوعات مدرسية
مطبوعات للأطفال
مطبوعات للشباب
مطبوعات للثقافة العامة
مطبوعات تجارية
سلسلة اقرأ . مجلة الكتاب

« مصنع من ثقافة وضياء كل قطر يعشو إلى نيرانه »
على الجارم

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨
س . ت . ٥٢١٢١

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التى تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة فى متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر فى طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملا فى فلسطين وشرق الأردن　٦٠ غرشاً فى لبنان
٦٠ فلساً فى العراق　٦٠ غرشاً فى سوريا